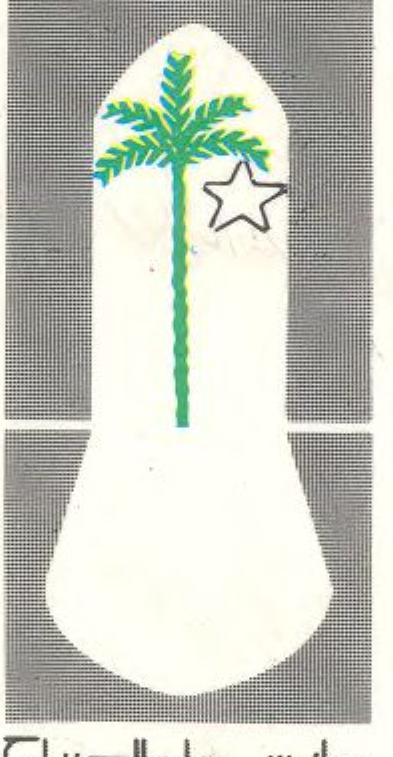
ر روايــــة



رحلة ألهامى الى المـوت

للأديب اليوغسلافى رشاد قاضيتش

تقديم : د. جمال الدين سيد محمد

ترجمة و

رحلة الهامى
الى المـوت

الطبعـــــة الأولى ١٩٩٣

دار سـعـاد الصبـــاح
ص.ب : ٢٧٢٨٠
الصفاة ١٣١٣٣ - الكويت
القاهرة - ص.ب : ١٣ المقطم ٢٦٧ دق
تليفون : ٣٤٩١٧٢٧ ، ٣٤٩٧٧٧٩ ، ٧٠٩٥٨٣
فاكس : ٧٠٩٥٦٣ ، ٥٠٦١٠٣٠

رقم الإيداع : ١٩٩٣/٢٠٦٣
I.S.B.N. 977—5344—75—1

الاشراف الفنى : حلمى التوا

اهداءات ١٩٩٩

دار الجميل

القاهرة

ر

روايـــــــة

رحلة الهامى الى المـوت

للأديب اليوغسلافى رشاد قاضيتش

ترجمة وتقديم

د. جمال الدين سيد محمد



المقدمـــة

□ □ رواية « رحلة إلهامي إلى الموت » تأليف الكاتب اليوغسلافي **رشاد قاضيتش** . تتبع الأدب اليوغسلافي بمعناه الشامل . ونقصد هنا بالأدب اليوغسلافي ذلك الأدب الذى يسود بين الشعوب اليوغسلافية فى مناطق صربيا وكرواتيا والبوسنة والهرسك والجبل الأسود ومقدونية وسلوفينيا وكذلك كوسوفو وفويفودينا . وبالرغم من شيوع استخدام هذا التعبير خارج وداخل يوغسلافيا ، إلا أن الخلاف حوله ما زال مستمراً حتى وقتنا الحالي .

والواقع يؤكد أنه يوجد ارتباط وتقارب معين بين فروع الأدب اليوغسلافي مثلما يوجد أيضاً ارتباط بين الشعوب اليوغسلافية سواء من حيث تاريخها المشترك أو من حيث لغاتها ، إلا أن الظروف الثقافية والاجتماعية عبر القرون الماضية فرّقت بين هذه الشعوب اليوغسلافية ، بحيث إن بعض هذه الشعوب عاش حياته المنفصلة ، المستقلة ، المتباينة ، وتطور على نحو متميز ومغاير لباقي جيرانه ، هذا بالإضافة إلى أن مختلف الدول التي سيطرت على الأراضي اليوغسلافية تركت تأثيرات متباينة ، غيرت من هيكل وتكوين الشعوب اليوغسلافية . وكان من الطبيعي أن ينعكس كل هذا على أدب الشعوب اليوغسلافية .

كما أنه لا يمكن إغفال أن هذه الشعوب قد تباينت سُبُلَها عبر القرون ، وتفاوت تطورها الاجتماعي والثقافي ، ويعد هذا انعكاساً طبيعياً للأحوال والظروف المختلفة التي خاضتها : ولكن بالرغم من كل هذا فلا يستطيع أحد أن ينكر الكثير من الخطوط المشتركة بينها . إن الأدب اليوغسلافي أشبه بشجرة واحدة نمت وترعرعت وتفرعت منها غصون عديدة وفروع متعددة هى آداب الشعوب اليوغسلافية ، أو ما يطلق عليه التعبير الشامل « الأدب اليوغسلافي » .

والأدب في منطقة البوسنة والهرسك جزء لا يتجزأ من الأدب اليوغسلافي ككل ،

إلا أنه لا يمكن فهم هذا الأدب وحل رموزه ، دون معرفة تاريخ هذه المنطقة ودون التعمق في خلفية الحقائق التاريخية ، دون الإلمام بما تعرضت له المنطقة من أحداث جسام ومخاطر عظام .

ومن الحقائق التاريخية الهامة ، تواجد الأتراك العثمانيين في تلك المنطقة ، ابتداءً من القرن الخامس عشر وحتى أواخر القرن التاسع عشر . وبذلك حلت الامبراطورية العثمانية محل بيزنطة فى دور الوسيط ، والناشر لعناصر الحضارة والثقافة الشرقية بين سكان هذه المنطقة ، والخلاف الجوهري الوحيد بينهما يتمثل في اتساع مدى التأثيرات الشرقية التي عمقت جذورها بينهم لدرجة أن كثيراً من هذه التأثيرات والعناصر ما زال موجوداً حتى بعد انحسار وزوال التواجد العثماني ، بل ويمكن القول بأنها متواجدة حتى وقتنا الحالي .

والأدلة على ذلك عديدة وَجلِيَّة . فنظرة واحدة إلى المدن والقرى التي كان يعيش فيها مسلمو هذه المنطقة خلال الحكم العثماني ، تبين لنا تعدد جوانب وعمق التأثيرات الإسلامية التي نقلها العثمانيون . وقد اعتنق الإسلامَ في ظل الأتراكِ العثمانيين عددٌ كبير من سكان البوسنة والهرسك ، واتجهوا في ثقافتهم صوب الشرق وتقبلوا في كثير من مجالات الحياة الأسلوب الإسلامي حسبما نقله الأتراك العثمانيون . ولا ينبغي أن نغفل على الإطلاق أن العثمانيين نجحوا في استثمار نشاط أغلبية هؤلاء المسلمين اليوغسلاف في إقامة الإمبراطورية العثمانية ، وفي نشر عناصر الحضارة الإسلامية ، وبهذه الطريقة لم يقاوم سكان البوسنة والهرسك التأثيرات الإسلامية الآتية لهم عن طريق العثمانيين بل تقبلوها بمنتهى السهولة .

وليس صحيحاً الادعاء بأن النشاط الثقافي والأدبي توقف توقفاً كاملاً في هذه المنطقة وقت تواجد الأتراك العثمانيين بها . فلم تتم دراسة هذه الحقبة دراسة مفصلة وما زالت البحوث بهذا الشأن مستمرة ، وتطل علينا كل يوم بجديد ، وما صدر منها حتى الآن يدحض هذا الادعاء .

لقد كانت التأثيرات الإسلامية على الأدب الشعبي الشفاهي بين مسلمي البوسنة والهرسك قوية إلى أبعد الحدود . وأحب هؤلاء المسلمون القصص التي تُحكى عن **نصر الدين خوجه الرومي** الذى يعد صورة ثانية من **جحا العربي** ، وانتقلت إليهم أيضاً

الحكايات الخاصة بالجن وأعمال السحر ، والصعود إلى السماء والاتصال بالأرواح وما إلى ذلك .

ويتجلى التأثير العربي الإسلامي على أوضح صوره ، في الأعمال الأدبية التي ألفها مسلمو هذه المنطقة باللغات العربية ، والتركية والفارسية طوال فترة الحكم العثماني لهذه المنطقة . ويربو عدد المؤلفين بهذه اللغات على ثلاثمائة مؤلف ، كتبوا في علوم الدين ، والتصوف ، وتاريخ الشعوب الإسلامية ، وفي اللغة العربية وفي مختلف الأجناس الأدبية ، وعلى الأخص في مجال الشعر ، الذي كان متطوراً ومزدهراً في الأدب العربي كشكل من أشكال التعبير . وفي مجال النثر برز أدب الرحلات وفيه كان المؤلفون يصفون رحلة الحج إلى بيت الله الحرام .

وقد ألف الأدباء المسلمون فى البوسنة والهرسك ، مثل هذه الأجناس الأدبية باللغة العربية تطبُّعا لا طبْعا ، وذلك ذهابا منهم إلى التفنن في روائع الكلام . ومباهاة بقدرتهم على النظْم والكتابة بلغة القرآن الكريم ، وكانت موضوعاتهم ترتبط في الأغلب بمنطقة البوسنة والهرسك ، فنجد مثلاً شعراً في وصف مدنها ومختارات شعرية لتسجيل الأحداث الهامة ، وأدب رحلات يصف فيه مؤلفوه الأماكن البوسنوية التى يمر بها الحجاج في رحلتهم إلى بيت الله الحرام .

وقد كان هناك ـــ فيما سبق ـــ لسبب أو لآخر ، إعراض من جانب الباحثين والنقاد عن دراسة هذه الأجناس الأدبية للمسلمين اليوغسلاف . وربما كانت حجتهم الأساسية بأنه أدب لم يأت بجديد ، وبأنه ليس إلا صورة للأدب الإسلامي أو محاكاة له . وهي حجة واهية ، لأن أي أدب يستحق الدراسة بصرف النظر عن مغايرته أو مماثلته لغيره ، والدراسة وحدها هى التي ستوضح مدى المغايرة أو المماثلة .

وبعد عام ١٨٧٨ تعرضت منطقة البوسنة والهرسك لأحداث مصيرية دامية ، وذلك لأنها أصبحت مسرحاً لصراعات وخلافات شديدة بين القوى الأوروبية . ولا شك أن فترة الحكم النمساوي الهنغاري لهذه المنطقة هي فترة حاسمة في التاريخ الثقافي لسكان هذه المنطقة من المسلمين . مرت الحياة الروحية والثقافية بعملية تردد درامية ، وانتقلت من العزلة الأدبية والثقافية إلى انفتاح على الآداب المجاورة . وكان النشاط الأدبي وقوة الكلمة

المكتوبة ـــ آنذاك ـــ هما ضرورتان مُلِحَّتان من أجل أن يعود الإنسان إلى ذاته ، وأن يثوب إلى رشده ، ويفيق من سباته ، وأن يُشفي ظمأه ، وفي النهاية ، أن يثق بقوته الذاتية حتى يناضل الاحتلال الغاشم .

وبعد ذلك . مر أدب البوسنة والهرسك بالمراحل التطورية التي مرت بها جميع الآداب الأوروبية كالعقلانية والرومانسية والانطباعية والتعبيرية . ومع التطورات السريعة لهذه الأشكال الأدبية ، تساوي هذا الأدب مع الآداب الأوروبية المجاورة فيما يتعلق بالأسلوب وبالاتجاه الرئيسي ولكن مع احتفاظه بِسُبله الخاصة ، وإمكانياته المتميزة ودون أن يفقد ذاتيته .

والأديب اليوغسلافي المسلم **رشاد قاضيتش** مولود في عام ١٩١٢ بمدينة سراييفو عاصمة منطقة البوسنة والهرسك . وفي فترة دراسته ، بدأ ينشر قصصه الأولى في الصحف ، والمجلات الخاصة بالمسلمين اليوغسلاف . وفيما بعد اختار مهنة الصحافة التي استمر يمارسها لفترة طويلة . وقد تميزت تميزاً خاصاً تحقيقاتُه الأدبيةُ الصحفية التي كتبها ، معالجاً فيها بعض الموضوعات الاجتماعية . وظل العديد من هذه التحقيقات الصحفية أشبه بشهادات واقعية فريدة لفترة ما قبل الحرب وللعلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك في منطقة البوسنة والهرسك . ولفتت الأنظار أيضاً كتاباته العديدة الساخرة ، وأحاديثه الفكاهية التي كتبها بأسلوب سلس متموج ، وهي تؤكد لنا أنه أديب ، على معرفة جيدة ببيئته ، التي كان يستلهم منها موضوعاته ، كما توضح ثراء قاموسه اللغوي ، وعلاوة على ذلك منح الحوارُ البسيطُ الممتاز سحراً وفتنةً لكتاباته .

وفي السنوات التالية للحرب اتجه **رشاد قاضيتش** إلى العمل الأدبي ، وبدأه بقصيدة « المولد الشريف » ، وهى من قصائد المديح النبوي ، وحصل بها على أول جائزة في المسابقة التي أجرتها المشيخة الإسلامية بيوغسلافيا . وقد لاقت هذه القصيدة قبولاً شعبياً طيباً لدى المسلمين اليوغسلاف ، وطبعت حتى الآن عشر طبعات ، كما تم تسجيلها على اسطوانة . وهكذا دخلت هذه القصيدة كل منزل يوغسلافي مسلم ، وكل مسجد . وتواجدت في جميع ألوان المناسبات والاحتفالات .

ثم كتب قصيدة أخرى عن « **شخصية غازي خسروبك** » ، وعن أعماله الخيرية التي

ظلت حتى يومنا هذا وبعد مرور ما يقرب من ٤٥٠ عاماً على وفاته ، شاهدا على ما قام به هذا الرجل المسلم الذي ما زال يُذكر بالخير حتى الآن ، وقد حظيت هذه القصيدة أيضاً بعدة طبعات .

وفي مجال الإبداع الشعري أيضاً صاغ هذا الشاعر والأديب قصيدة عن : « حياة السيدة **فاطمة** » بنت النبي ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ وصاغها بأسلوب عصري قريب الى القلب والأذن . ولابد في هذا المجال من ذكر ما قام به **رشاد قاضيتش** ، بالاشتراك مع الأديب **عليا ناميتاك** ، من جمع القصائد الدينية لمسلمي البوسنة والهرسك ونشرها . وتم نشر مختارات من هذه القصائد ونبذة عن حياة مؤلفيها .

ومولي مصطفى باشيسكي هو بطل روايته « الرسالة الأخيرة **لباشيسكي** » ، وهو كاتب عمومي متواضع من مدينة سراييفو ، وعاش في الفترة من النصف الثاني من القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر . ورغم أنه لم يكن عالماً إلا أنه كان أكثر نضجاً وحكمة من معاصريه . وكان طوال حياته يسجل بنشاط مختلف الأحداث ويعلق عليها ، ثم جمعها في كتابه المشهور « الحوليات » الذي يعد من أروع ما كتب في الأدب اليوغسلافي في هذا المضمار . ويستعرض هذا الكتاب أمام القاريء مجموعة من الشخصيات المتباينة ابتداءً من الصوفية الذين وهبوا أنفسهم للأمور الروحية ومروراً بأصحاب النفوذ الذين فقدوا الإحساس وانتهاءً بالقتلة العتاة .

وروايته الثانية « الحاج لويو » تعالج حدثاً من أضخم الأحداث ، إن لم يكن أضخمها على الإطلاق ، في التاريخ الحديث لمنطقة البوسنة والهرسك ، وخاصة في تاريخ المسلمين بهذه المنطقة ، ألا وهو الإحتلال النمساوي الهنغاري للبوسنة والهرسك في عام ١٨٧٨ . ونوهنا من قبل إلى أن هذا الحدث كان نقطة تحول بارزة في حياة جميع المسلمين آنذاك .

وتعد هذه الرواية في حقيقتها تأريخاً دقيقاً لهذا الحدث ، وتبدأ بوصف الاستعدادات السياسية والعسكرية لاحتلال البوسنة والهرسك ، بواسطة الإمبراطورية النمساوية الهنغارية . وخاض شعب هذه المنطقة دوامة الحرب ، وشرع أفراده العزل في مقاومة المحتل المتفوق عليهم عَدداً وعُدة أضعاف المرات .

وسجل أحد النقاد اليوغسلاف في معرض كتابته عن رواية « الحاج **لويو** » أن هذا

الموقف الدرامي العصيب اكتسب في هذه الرواية سُمواً ملحمياً وبيَّن للعالم أجمع القلب الكبير الذي يحمله بين جنباته هذا الشعب الصغير في منطقة البوسنة والهرسك . ونقل الأديب بقلمه المبدع ، ولغته السلسة ، وكلماته المعبرة هذا الحدث الخطير من الواقع المؤلم إلى صفحات روايته الأدبية وقدم له التفسيرات اللازمة ودعم كلامه بالوثائق . وهكذا عادت الحياة إلى عام ١٨٧٨ على صفحات هذه الرواية وعلى يد الأديب **رشاد قاضيتش** .

وفي الفترة من ١٩٦٠ إلى ١٩٧٠ قام هذا الروائي المسلم بعمل يعد غريباً بكل المعايير ، فقد نشر تحت اسم مستعار في مدن مختلفة من يوغسلافيا تسع روايات من الخيال العلمي هي : القرين فوشتاني ، الوفاة الثانية للدكتور **لانج** ، رجل من البيت الاصفر ، نادي الأربعة ، بوذا الذهبي ، ملك الحشيش ، معرض الملعونين ، غول من ريتشاموند ، ثلاثة يبحثون عن دليل البراءة . وأحداث جميع هذه الروايات تقع في بيئة غريبة عن يوغسلافيا . و لم أستطع حتى الآن أن أجد تفسيراً منطقياً مؤكداً لهذه الظاهرة غير المألوفة .

ومن المؤكد أن روايته « رحلة **إلهامي** إلى الموت » تعد من أشهر بل ومن أفضل أعماله الروائية . ومن الجَلِيّ أنه كتبها على دفعة واحدة ، وهى تبين ـــ على أفضل صورة ـــ إمكانيات هذا الأديب وقدراته الإبداعية بحيث إن المرء يحزن أشد الحزن لأنه لم يكرس جُلَّ حياته للرواية وللعمل الروائي .

ويلاحظ بوجه عام أن **رشاد قاضيتش** ،يكتب عن آلام الإنسان ، وكروبه ، وهمومه ، ومصائبه وهو يصور أبدع تصوير الظلم الذي سحق المسلمين في البوسنة والهرسك ، بل وتعداهم إلى غيرهم من أتباع الديانات الأخرى تاركاً آثاره البشعة ، وفي كل مرة تكون الآثار أشد عنفاً وقسوة . ولكن لابد على الفور من التركيز على أن **رشاد قاضيتش** ككاتب إسلامي لا يترك شخصياته تضيع بين التردد واليأس أو تنتهي في مآسٍ سوداء بعد أن فقدت آمالها وروحانياتها وإنما يقودها إلى بر الأمان .

وقد استلهم **رشاد قاضيتش** أحداث رواياته من الماضي ، كما فعل مع من سبقوه من الأدباء .. ولكنه يعد الكاتب الذي تحدث بأصدق أسلوب عن روح المسلم اليوغسلافي ، تلك الروح التى انشغلت بفكرة الموت والحياة الأبدية وكادت تنفصل عن الواقع .

ويتميز أسلوب **قاضيتش** بالحوار الممتاز ، والتعبيرات التلقائية ، والابتعاد عن القوالب المعروفة في الآداب العالمية ، والتمسك بأسلوبه الخاص ، وطريقته المتميزة في الكتابة بطريقة يسيرة على الفهم وبلغة شعبية حبيبة إلى الأذن .

د . جمال الدين سيد محمد

□ □ هذه قصة حقيقة عن **عبد الوهاب بن عبد الوهاب الجيبتشاوي ــ إلهامي** الذي ، عاش حياة العادل ومات موتة الشهداء في ترافنيك ، مدينة الوالي ، في عام ١٨٢١ .

وكان رجلاً فاضلاً من رجال الدين ، وصوفياً متحمساً وشاعراً شجاعاً . وكان يكتب باللغتين التركية والعربية وبلغته الأم ، التي سماها باللغة البوسنوية . وعلاوة على كتاباته الدينية الملحوظة فقد ترك عدداً كبيراً من القصائد يُعد بمقتضاها من أغزر الشعراء المسلمين إنتاجاً في عصره .

وقد وُلد وعاش في مدينة جيبتشه في فترة متخمة بالطغيان ، والظلم ، والرذائل ، التي كانت منطقة البوسنة ترتجف تحت وطأتها وتسيل دماؤها . و لم يستطع هذا الناسك المتعمق العادل ــ وقد أثار مشاعره مصير بلاده وأهل بلده ــ ألا يصرخ ، وألا يرفع صوته ضد أولئك الذين كان يعتبرهم مسئولين عن المصير السيىء لمسقط رأسه . وقصيدة الاحتجاج التي كتبها **إلهامي** تحت عنوان : « حل رمان غريب » وضعت بصْمَتِها على قدره المؤسف : فقد استدعاه **جمال الدين علي باشا** ، الوالي البوسنوي حينذاك والمعروف بقسوته ــ إلى ترافنيك وأعدمه .

وأثارت موتة الشهيد التي لقيها **إلهامي** ، بشكل مؤلم ، مشاعر جميع الأشخاص المحبين للعدالة . وهذا هو ما تشهد به أبيات الشعر المنقوشة على اللوحة الخاصة بالشاهد الموضوع على قبره في ترافنيك بمدافن « بوتور محل » .

□ □ □

رحل إلى العالم الآخر وهو يعاند الطغاة
وبعده هلك الأصدقاء الأوفياء في حزن عميق
وقدم رأسه للسيف منتظراً قدره السيىء
وأصبح سيد عبد الوهاب قدوة لكل العادلين .

(من أبيات الشعر المكتوبة على قبر إلهامي)

تملّك الناسُ الفزعَ حينما وصل إلى جيبتشه نبأ استدعاء **إلهامي** إلى مدينة ترافنيك . وبينما كان يمر عبر السوق ، كانوا ينظرون إليه ، كما يتم النظر إلى أولئك الذين يتم اقتيادهم إلى ساحة الإعدام . ولم يقترب منه أي انسان ، ولم يخاطبه أحد . وتظاهر الناس في السوق بأنهم لا يَروْنه ، رغم أنهم جميعاً يشاهدونه ويتابعونه بنظراتهم ، ولكن هكذا بخبث وخلسة ، من الدكاكين والمقاهي . ولم يقترب منه إلا « بابان » المخبول ، وألقى عليه التحية وهو يبتسم ومد له يده المفتوحة . ونظر إلى القرش الذى وُضِع في يده ، وابتسم واختفى في السوق ، وهو يصدر صوتاً كالثغاء .

وحينما ظهر **إلهامي** أمام مسجد **فرهاد باشا** توقف ، ورفع يديه وأخذ يقرأ القرآن . وتهيأ للناس أنه يتحدث مع الأموات ، وكأنه يسألهم عن أحوالهم ، وعما إذا كانوا يشعرون بضيق ، وذلك لأنهم يعتبرونه في عداد الأموات . وسار مرة أخرى وهو مستغرق في التفكير وقد أحنى رأسه بشدة .

وقضى الليلة جالساً بمفرده بجانب شمعة موقدة ، وهو قاعد على ركبتيه . ولم يزره أحد ، أو طرق على نافذته ، رغم أن الجميع كانوا يعرفون أنه سهران . والشمعة الموجودة في الشمعدان تُحدِثُ فحسْب طقطقةً وتزداد صلابة .

كان هادئاً وساكناً في برود تقريباً ، رغم أن قلبه كان يستشعر سبب استدعاء الجلالي له ، وما ينتظره في ترافنيك . ولم يتعشم أي خير وذلك لأنه منذ مجيء الجلالي

غمر بالدماء مدينة ترافنيك وحيث كان يُذكر اسمه في خوف .

وفي هذه الليلة بدأت حياته كلها تمر أمام ناظريه ، حياته منذ نعومة أظفاره . لقد أحس ببشاشة حينما حاكُوا له أول سروال ، وحينما ذهب مع أبيه لأول مرة إلى المسجد في صلاة العيد وهو يديم النظر إلى نفسه وإلى سرواله الجديد . ثم تذكر المدرسة الإسلامية « جيبتشة » ومعلمه « قراخوجه » الصامت ، الصارم ، الذي تعلم على يديه لسنوات وسمع منه أول أبيات الشعر .

وبعدئذ انتقل بذاكرته إلى مدرسة « فوينيتسا » الإسلامية وإلى التكية القريبة في جيفتشيتش . وظهر الآن أمام عينيه الشيخ **حسين بابا** ، وهو وديع ومستغرق في الأفكار بشكل كئيب وحافل بالمعرفة ، مثلما يحفل الشمع بالعسل . وبعد إقامته لفترة طويلة في اسطنبول ، وتلقيه العلم بها ، وتجواله في التكيات الموجودة ما بين بُخارى وسمْرقَنْد ، حيث أثار بعبقريته وعلمه الأساتذة الموجودين هناك ، شعر **حسين بابا** بحنين شديد إلى مسقط رأسه فعاد إلى البوسنة وأسس تكية في جيفتشيتش . وكان **إلهامي** تلميذه الموهوب والمخلص بشكل نادر . وأرشده **حسين بابا** إلى الأسرار السامية للتصوف ، وضمه إلى الطريقة النقشبندية الصوفية . وبدلاً من اسمه الذى كان يحمله حتى ذلك الحين وهو **عبد الوهاب بن عبد الوهاب الجيبتشاوي** ـــ جيبتشاك ، اتخذ اللقب الصوفي « إلهامي » ومعناه المُلْهَم لأنه كان يعتقد اعتقاداً لا يُنكر بأن كل ما تتغذى وتسمو به الروح البشرية يأتي عن طريق الإلهام الإلهي . وكان ينشد في نشوة :

لم يعــد شيء يعــوق إلهامــي
منذ أن هبطت عليه رحمة الله
انه لا يريد العون من أي انسان
قل بقلبك أيها الصوفي : الله ، الله .

وعاد من جيفتشيتش إلى جيبتشه ليعمل كإمام وخطيب لمسجد « **فرهاد باشا** » وكان عالماً فريداً ، وصوفياً متحمساً ، وشاعراً موهوباً ، ومَن أكثر الكتاب المسلمين غزارة في إنتاجه في ذلك الحين . وعلاوة على كتاباته الدينية فقد كتب عدداً كبيراً من القصائد . وكان يُقرض الشعر بلغته الأم وباللغتين التركية والعربية . وهناك شيء

آخر ، فقد كان مصاباً بمرض شديد ، إذ كان يشعر بالآم في جسده وروحه وتملكَتْهُ الكآبةُ والبؤس بسبب الكروب التي تعيش فيها البوسنة . وتهيأ له أنه سيلقى حتفه ، وأن ساعته قد اقتربت وكتب وهو يودع الدنيا وأصدقاءه :

« ذكروني بالشهادة في لحظة الاحتضار حتى لا أرحل إلى الآخرة من غير إيمان .

أغلقوا عيني ولا يتملك الفزعُ أحداً من أجلي ولا تجعلوا الأئمة يشعرون بصعوبات واضطراب ، ولا تؤجلوا الدفن ، حتى لا تفوح من الجسد رائحة كريهة ، ولا تجعلوا إخواني من المسلمين يحسون بالمشقة والألم ، وأحسنوا إنجاز كل شيء بسرعة حتى لا يشعر المسلمون بالمشقة أو الملل بسبب جنازتي . اغفروا لي عيوبي وأنا أغفر للجميع .. أنا لا أبكي من أجل هذه الدنيا ولا أتعلق بها . لقد صعدت بالفعل إلى عالم الانتقال ..

ولا يحدث الموت بدون حلول الأجل . ولم يكن مقدراً **لإلهامي** أن يموت ، وكان مكتوباً عليه أن يعيش وأن يعاني بسبب الشر والظلم والطغيان في زمانه .

وأصاب هذا الأمر **إلهامي** بالتمزق ، وعلى الأخص بسبب الطغيان ، فقد كان يرى فيه مصدراً لجميع الشرور . ولذا فقد ثار ضده بالشيء الذي كان متفوقاً فيه : بالشعر الذي انصهر وازدادت صلابته في نار إيمانه ، وقد تفانى في هذا الإيمان بشكل لا يمكن التعبير عنه . وفي هذا المضمار لم يكن رحيماً تجاه الباشوات أو العلماء . ولو لم تكن هذه حاله لكان من المؤكد أن تستمر حياته لفترة أطول . وأنشد في أضاليلهم قائلاً :

ـ أين خليل باشا ؟

ـ والضيف علي باشا ؟

ـ وحتى أبقارنا تعرف

ـ أين كانت أكاذيبكم ؟

ـ اخجلوا ، إنه العار

ـ اخشوا ، إنه الإثم

ـ ماذا تفعلون ، تبصّروا

ـ أين كانت أكاذيبكم ؟

وسمعوه ولكنهم لم يكترثوا .

ثم جاء **جلال الدين علي باشا الجلالي** والياً على البوسنة ، مُرسَلاً من قبل السلطان **محمود الثاني** القائم بالإصلاحات . وقد سعى السلطان عن طريق الإصلاحات التي عمل على تنفيذها إلى إنقاذ الإمبراطورية التي كانت تتزعزع تزعزعاً كبيراً وتتداعى بسبب عجزها . ولم تعد البوسنة ساحة الدار وحديقة الأزهار بالنسبة للإمبراطورية ، بل جرحها المكشوف الذى يسيل دماً ويزداد اتساعاً . وكان أبناؤها يلقون حتفهم في كل مكان ، وظلت لفترة طويلة مثخنة بالجراح بواسطة الحروب والثورات والطاعون والطغيان . وتحتم على **الجلالي** أن يداوي تلك الجروح ويبرئها ، وأن يخضع البوسنة لأنها كانت تعض على نواجذها بسبب الكرب والألم وتحاول النهوض من عثرتها .

وقدم **الجلالي** من « إدرينا » حيث كان حاكماً عليها . وكانت طباعه قاسية ، ولا يتردد في قراراته ، وعالماً ، وعلاوة على ذلك عديم الشفقة ، وكذلك كثير الإنفاق ، ولذا فقد قبل بسرور المهمة التي أوكلها له السلطان . وكان من رأيه أنه لا يفل الحديد إلا الحديد . وهذا هو ما فعله .

وبعد حضوره إلى ترافنيك مباشرة ــ وكان هذا في ربيع عام ١٨٢٠ ــ بدأ يستدعي الأعيان المشتبه في أمرهم والقائمين بالعصيان . وانتهى الأمر بأولئك الذين أسعدهم الحظ ــ بالجلد أو النفي ، أما الباقون فقد انتهوا إعداماً بسيف الجلاد ، أو شنقاً بالحبل الحريري . وكما يسجل المؤرخون ، ففي ليلة دامية فحسب من ليالي ترافنيك تم إعدام ثلاثين من النبلاء الأعيان ، وفي ليلة أخرى ، دفع سبعة من الضباط المسئولين عن المدن رؤوسهم ثمناً . ولم يتمكن أحد من أن يتحرك من مكان إلى آخر بدون تصريح خاص ممهور بختم **الجلالي** بينما كان العديد من الحراس يراقبون الطرق التي يمكن السفر منها ، وكان على كل الأشخاص المشتبه فيهم ــ ولو قليلاً ــ أن يحضروا أمام المحكمة كُفَلاء ذوي ثقة يضمنون سلوكهم ، أما أولئكُ الذين لم يكن بإمكانهم العثور على كفيل . فلابد من تسجيلهم وإثبات أوصافهم ثم ترحيلهم إلى ترافنيك . وأمر **الجلالي** بتثبيت مقياس حديدي على أحد عروق الخشب بأحد المنازل في سوق ترافنيك ، مدموغاً على الحديد بختمه . وينبغي أن يصلح كتحذير مزدوج : بأن مقياس العدالة واحد بالنسبة للجميع ، وبأنه مقياس لابد أن يلتزم الجميع به .

ودب الخوف ــ والله يعلم ــ عدد مرات الخوف التي سبقتها ، في البوسنة وفي أحشاء الناس . وحينما سئم من الظلم حتى الطائر على الغصن الأخضر ظهر **إلهامي** ورفع صوته لآخر مرة وأنشد قائلاً :

ــ « حل زمان غريب

ــ وأصبح كل شيء شراً

ــ ماذ نتوقع بالله عليكم ؟

ــ لقد تلاشت الطاقة

ــ وأصبح كل شيء سيئاً لنا

ــ واختفى الناس الطيبون

ــ ماذا نود بالله عليكم ؟

ــ ليس هناك عمل للتركي

ــ فقد طمس الظلم العدل

ــ وأبيدت العدالة

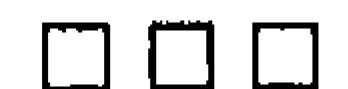
ــ ماذا ننتظر بالله عليكم ؟ »

ورغم أن **إلهامي** المحب للعدالة كان مسلماً صادقاً وصوفياً ، وهي صفات تطابقت ــ آنذاك ــ مع كلمة التركي ، إلا أنه كانت لديه الشجاعة لأن يندد تنديداً علنياً بالطغيان ولأن يقول الحقيقة .

□ □ □

والآن يجلس على ركبتيه حزيناً ويشعر بعدم المبالاة ، وأخذ يقلب في ذكرياته ويبرز على سطح الواقع الذي كان أشد قتامة من المساء الجاثم . فوق المدينة . ثم نهض في عزم وشرع يأخذ أهبته . وتحرك في أحد الأوقات قبيل الفجر ورافقه أول صياح للديوك ، ونباح الكلاب البعيد ، والليل بهيم يخلو من القمر .

وترك المدينة في عجلة ولم يلتفت وراءه . ولم يسمح للمشاعر بأن تصرعه . لقد رتب في هذه الليلة كل شيء مع نفسه في غير تردد . وستظل رحلته حتى نهايتها سوية ونقية ، وقد صوب بصره ناحية ضوء الحقيقة التي كان يتفانى في خدمتها .



□ □ يارب ، هل هو يحلم ؟ إلى أي مدى يكون هذا المساء مظلماً وزائفاً وكأن كل شيء قد أصيب بالفناء ولم يبق إلا هو . والآن يسير تحت السماء المعتمة وأسفل التلال الضخمة الصامتة ، بينما هنا ، في مكان قريب ، يصدر أنيناً نهر غير مرئي تخفيه أمساخ قاتمة ترقد كالملعونة وتتربص بجانب شاطيء النهر . وهل بعد هذا الليل توجد بالفعل ترافنيك . مدينة الوالي ، ويوجد في هذه المدينة رجل يدعى **جلال الدين** أرسل في استدعائه وينتظر أن يفصل رأسه عن جسده ؟ وإذا كان حقيقة أنه موجود فماذا يفعل الآن ؟ هل ينام ؟ وبعدما يستيقظ ويتذكر من هو وما الأمر فهل سيواصل حياته مرة أخرى من حيث توقف بالأمس ؟ وهل النهار الذي يوشك علي البزوغ سيغير كل هذا ويجعله مفعماً بالحيوية ؟ ستغرد الطيور وتسطع الألوان وتتألق ، ويصدر النحل طنيناً ويطير من مناحله لكي يلتقي بالزهور التي تنتظره ، وسيفرك الرجال المستيقظون أعينهم الناعسة ويمددون أطرافهم ويقبلون على الأعمال التي تنتظرهم . وسيتبدل كل شيء وتنبض بالحياة تلك الأشياء التي تقبع الآن وكأنها بغيضة وجامدة ومتبلدة الحس .. كل شيء فيما عدا قدره الذي يناديه وينتظره .

وانتفض **إلهامي** ، ولم يكن هذا بسبب الخوف بل بسبب جلال اللحظة التي ستبدأ . وبزغت الشمس من وراء التلال ، وهي تتوهج كالذهب السائل الذي يفيض على التلال . وشعر فجأة بضآلة وتفاهة **جلال الدين باشا** هذا الذي يستدعيه إلى مدينة ترافنيك لماذا تصيبه النشوة وبماذا يخدع نفسه ؟ أيعتقد أنه سيد حياته ووفاته ؟

وعلا التكبير وتوقفت أنفاسه بسبب الانفعال .

□ □ □

□ □ وتوارى تقريباً داخل الغابة ، وابتهجت نفسه بغناء العصافير وحركات طيور السناجب غير الهادئة ، وهناك أرنب يقبع مذهولاً على الطريق وينظر إليه في فضول ، ثم قفز وانعطف في قفزته واختفى .

ومرة أخرى ظهر أمام عينيه **جلال الدين علي باشا** بجسده الضخم متوعداً . وتوقف **إلهامي** . وأحس بضربة ساخنة على قلبه ولكن للحظة واحدة فحسب .

وهمس في عزم :

ـــ أيها الشيطان ، عليك اللعنة ، ارحل من أمامي . لا فائدة من تخويفي وابتلائي ! عد إلى مَن أرسلك !

وأشاح بيده وكأنه يدافع عن نفسه ضد أحد الأشخاص وأسرع خطاه .

ودوت صيحة قائلة :

ـــ قف .

وظهرت من وراء شجرة الزان ماسورة بندقية طويلة وتوقف **إلهامي** .

ـــ ألق سلاحك !

وترك الصرة وعصا الدراويش .

ـــ ارفع يديك !

ورفع يديه وكان يقف كالتمثال ، وارتفعت جبته إلى مافوق ركبتيه .

واقترب منه ذلك الشخص من وراء ظهره ، وهو شاب .. عريض المنكبين ومسلح ، ووقف في مواجهة **إلهامي** وحملق في وجهه وهبط ببصره حتى قدميه وابتسم في تهكم وأنزل البندقية .

ـــ من أنت ؟

ـــ مسافر .. درويش .

ـــ أين نقودك ؟

وأخرج **إلهامي** كيسه في ارتباك .

وأخذه قاطع الطرق وفكه وأسقط على راحة يده بضعة قروش بائسة .

هل هذا هو كل شيء ؟

ـــ كل شيء .

ـــ يالك من رجل ! وإلى أين أنت ذاهب ؟

ـــ إلى ترافنيك ، لزيارة أحد الأشخاص ؟

ـــ إلى الوالي .

وابتعد قاطع الطرق ورفع بندقيته مرة أخرى قائلاً :

ـــ إلى الوالي ؟ هل أنت من أتباعه ؟

ـــ إنني لست تابعاً لأحد ، فيما عدا تبعيتي لله .

ـــ فلماذا تذهب إليه إذن ؟

ـــ استدعاني .

ـــ استدعاك ! لماذا ؟

ـــ من يعلم لابد أنني ارتكبت خطأ في حقه ..

ـــ يالك من بائس ، إذا كان قد استدعاك فخذ حاجياتك هذه وهيا ، وأشار له قاطع الطرق بعينيه إلى الحاجيات وسارا لفترة من الوقت في صمت .

ـــ لايمكن أنك لاتعلم لماذا يستدعيك ؟

وصمت **إلهامي** وشدد قاطع الطرق على كلامه وهو ينظر إليه شذراً :

ـــ إذا كان **الجلالي** يستدعيك فمصيرك معروف !

وفي هذه المرة أيضاً لم يقل **إلهامي** شيئاً ، وشرد بأفكاره إلى مكان بعيد ، ووصلا تقريباً ، وبجانب ينبوع الغابة جلس أربعة أشخاص وأخذوا ينظرون في صمت وينتظرون أن يقتربا منهم .

ـــ من هو هذا الشخص ؟

هكذا سأل أحد الأشخاص وهو مدجج بالسلاح أكثر من الباقين وتمتد من أسفل

أذنه اليسرى وحتى أعلى جبهته ندبة عميقة ناجمة ربما عن طعنة خنجر أو ضربة سيف ، جفناه مضغوطان وعينه اليسرى عوراء .

ـــ يقول إنه ذاهب إلى الوالي في ترافنيك ، ويقول إنه استدعاه .

ونهض الأعور وخاطب **إلهامي** قائلاً :

ـــ أتقول إنك ذاهب إلى ترافنيك ؟

ـــ إلى ترافنيك ..

ـــ إلى **الجلالي** ؟

ـــ إليه ..

ـــ واستدعاك ؟

ـــ استدعاني .

ـــ أتعرف ، وقاك الله شر البؤس ، لماذا يستدعيك ؟

ـــ عندما أسمع سأعرف .

ـــ لايمكن أنك لاتعلم ! لابد أنك خالفت أوامره .

ـــ لابد .

ـــ من أي بلد أنت ؟

ـــ من جيبتشه .

وواصل الأعور أسئلته وهو ينظر إلى عمته وجبته :

ـــ بماذا تشتغل ؟ هل أنت عالم ؟ من تكون ؟

ـــ أنني درويش .

ـــ درويش . من أنت ، ما اسمك ؟

ـــ **إلهامي** .

ـــ واقترب منه الأعور قائلاً :

ـــ تقول إن اسمك **إلهامي** ؟

ـــ أجل ، **إلهامي** ..

ـــ ذلك الذي يكتب القصائد ؟

رهمس **إلهامي** وهو ينظر أمامه قائلاً :

ــ أجل هو .

ــ فلماذا لم تقل يا أخي على الفور ؟ أجلس ؟ لقد سمعت عنك كثيراً هل أنت جائع ؟.. يا إبريش هات اللحم والفطير !

ــ لا يلزم ، شكراً لك .

ــ لماذا .

ــ إنني صائم .

ــ هذا أمر آخر ! اجلس ، لماذا تقف ؟ اجلس هنا ، بجانبي على جذع الشجرة .

وجلس **إلهامي** .

ــ لقد سمعت قصائدك ، إنها حافلة بالمواعظ . وهى هكذا ، كيف أعبر ، تتسم بالعدل .

وابتسم **إلهامي** في حزن .

ــ ماذا ، لماذا تبتسم ؟

وابتسم الأعور أيضاً .

ــ تقول إنك سمعتها ..

ــ مرات كثيرة ، في السهرات .

ــ فلماذا لم تُطِعْني ؟

ــ لماذا لم أطعك ؟ أتقصد تلك الأمور الموجودة بالقصائد ؟

ــ أجل الموجودة بالقصائد .

وضحك الأعور وقال :

ــ لو أطعتك لأصبحت من الأولياء ، ولا ينبغي أن نكون أولياء جميعاً !

ــ ولكن لابد أن نكون بشراً .

وغضب الأعور وقال :

ــ هل هكذا بالضبط ؟ يحدث ، أتريد أن تقول ..

ــ إنني أقول لصالحك ، لك وهم .

ونظر **إلهامي** إلى أفراد الجماعة . وانفجر الأعور قائلاً :

ــ قل هذا إلى **الجلالي** . اسأله لماذا لا يكون إنساناً ؟ إنه الوالي ومع ذلك فهو أسوأ من كل قاطع طريق . إننا أكثر منه طهارة ونقاء مائة مرة !

ــ كل شخص مسئول عن أوزاره . وحتى لو كان **الجلالي** والياً فلم يُذكر أنه إنسان أيضاً .

ــ تمالك نفسك وقل له هذا ؟

ــ لقد قلت ماكنت أريد قوله .

ــ هكذا يحدث . والآن تذهب لكي تنال جزاءك . ايه يا صاحبي **إلهامي** .. حتى لا أذكر شيئاً ، أقول لك ، ستفقد رأسك !

ــ إذا كانت تلك إرادة الله فلتكن ؟ لقد سددت ديوني..

ونظر إليه الأعور لفترة من الوقت ، ونظر إليه الآخرون أيضاً . وشرع الأعور في الكلام قائلاً :

ــ أتعلم ..

ورفع **إلهامي** رأسه .

ــ من الأفضل بالنسبة لك أن تظل معنا ! مازالت بك قوة ويمكنك العمل ، وإذا لم تفعل شيئاً فستبقى رأسك بين كتفيك وهذا هو أهم شيء !

وصمت **إلهامي** ونظر في شرود أمامه .

ــ هيا نسمع ما رأيك ! لا أمزح قسماً بديني ! إنني حزين عليك يا أخي . إنك طيب ومتعلم ، وخسارة أن يتغلب عليك ذلك الجلاد . هيا ياعزيزي نسمع رأيك !

وتنهد **إلهامي** وقال وكأنه يتحدث مع نفسه :

ــ يمكنني الحفاظ علي رأسي ولكنني سأفقد روحي .. لأن ما تفعلونه لا يصح ، لا يصح يا اخواني . إن ما يفعله **الجلالي** مثير للفزع ولكن أعمالكم أيضاً لا تصح . والأمر يختلف بالنسبة له لأنه وال وملزم بإقامة العدل وفعل الخير . ستندمون أنتم وهو . ستندمون مر الندم !

ونهض أحد أفراد الجماعة واتجه نحوه قائلاً :

ــ لمن تقول ذلك ؟

وصاح الأعور ووقف بينهما .

ــ توقف يا إبريش !

ثم استدار إلى **إلهامي** قائلاً :

ــ خذ حاجياتك وهيا ! ما دمت تحب **الجلالي** إلى هذا الحد فها هو عندك ! كن ضحية له ، ولكن تذكرني عندما يشنقونك .

وقال في سخرية ذلك الشخص الذي استقبله وقاده :

ــ وها هو كيسه . كان فيه ستة قروش كاملة !

وقال الأعور في شفقة !

ــ ها هي مائة أيضاً ، لتكن معك . فقد تحتاج إليها .

ومد له يده بكيس مكتظ بالنقود كالبالونة .

ــ شكراً لك ولكني لن أحتاج إليها .

ــ ربما تكون خائفاً من مالنا الحرام ؟

ــ أجل هذا صحيح ، ولكن ربما لن أحتاج إليها .

ــ وأنا أيضاً أظن أنك لن تحتاج إليها .

وجمع **إلهامي** حاجياته في صمت . وقبل أن يشرع في التحرك توقف لحظة أو لحظتين وكأنه يفكر .. أيقول لهم شيئاً آخر وهو ذاهب .

وسأله الأعور :

ــ ماذا الآن ؟

ــ خطر شيء ببالي فيما يتعلق بنقودكم هذه ، فأريد أن أقول لكم قبل أن أرحل .

ــ هيا قل لكي نسمع هذا أيضاً .

ــ يقال إنه كانت هناك امرأة عجوز تعيش بدون أي أهل لها ، بمفردها تماماً . وعرف اللص ذلك وتعود على دخول منزلها ، فلم تكن هناك ليلة لم يحضر فيها إلى فنائها ، ولم يدخل مطبخها ، ويأخذ صينية أو إبريقا أو مصفاة ، وذلك لأنه لم يكن يوجد شيء فضل أو أكثر غلاء ، وكانت العجوز تنظر إلى كل هذا وتصمت ، فالمسكينة تخشى

أن يقتلها اللص إذا ما أثارت ضجة وأزعجت الجيران . وعندئذ رأى الجيران ذلك وأبلغوا الأمر للشرطة الذين جاءوا واختبأوا في المطبخ وانتظروا وانتظرت المسكينة هي الأخرى ، وجلست بجانب النافذة المطلة على الحديقة التي كان اللص يدخل منها إلى الفناء .

وفي تلك الليلة جاء اللص وسار في الحديقة ، وكأنه في حديقته ، بحرِّية و لم يحدث أي شيء . وحينما وصل إلى أسفل النافذة صاحت العجوز من فوق بأعلى صوتها قائلة :

ـــ أيها اللص ، أيها اللص !

وانتفض وتوقف . وهمست له من النافذة :

ـــ لا تذهب يا بني إلى هناك ! إنهم يتربصون بك وينتظرونك ، ويريدون أن يقبضوا عليك . عد يا بني ، ارجع . رجال الشرطة موجودون بأسفل ، في مخزن الطعام ..

ولما قالت ذلك أخذ اللص يتسلل بمحاذاة الحديقة . ورجال الشرطة ينتظرون وينتظرون ولكن اللص لم يأت . وتربصوا به أيضاً ليلة وليلتين ولكن دون جدوى . وحينما تبينوا أنه غير موجود نهضوا ورحلوا .

واستيقظت العجوز ذات صباح مبكرة كعادتها علي الدوام وهبطت إلى الفناء لكي تستخرج الماء من البئر ، ورأت في وسط الفناء صرة وفيها توجد كل أشيائها المسروقة لقد أعاد لها اللص كل شيء ووضع لها فوق كل هذا قطعة كبيرة من القماش كهدية ، لكي يشكرها .. ويقولون إنه فيما بعد هجر السرقة تمأماً وأخذ يعمل ويعيش بأمانة .

وسعل **إلهامي** بشكل له مغزى وصمتَ . وسكت الجميع لفترة من الوقت .

وقال الأعور في استهجان :

ـــ قلت لك ، خذ حاجياتك واذهب بينما هناك متسع من الوقت .

وجمع **إلهامي** حاجياته ورفع يده إلى مستوى جبهته وتحرك . ونظروا في إثره في صمت .

قال أحدهم مزمجرا :

ـــ كنت أريد أن .. من يعلم فربما يسبب لنا المتاعب !

ـــ دعه ، دعه يذهب ! لن يفعل ، إنه ليس من أولئك .. وإذا كان الأمر يتعلق برقبته فسيقطعها له الجلالي ، لا تقلق . لماذ نرتكب ذنباً بلافائدة . إنه عادل ، الحق حق ..

وأضاف الأعور قائلاً لنفسه أكثر :

ـــ أما ما قاله لنا فهو كله حقيقة ..

□ □ □

□ □ وترك **إلهامي** الغابة وخرج إلى بقعة خالية من الأشجار .

وزاد غمه بعد لقائه مع قطاع الطرق . وكما قال رئيس قطاع الطرق : ــ ولماذا ليس **الجلالي** إنساناً ! إنه والٍ ، وعليه أن ..

وتنهد تنهداً عميقاً وقال :

ــ هيه ، أيتها الأرض ! الويل لك ما دام سكانك يتخذون القدوة من لئام سادتهم ! أي خير يمكنك أن تتمنيه ؟

وتشتد حرارة الشمس وهي تصعد إلى وسط السماء ، والطريق يحفل بالتجاويف والحفر والأحجار المتهاوية ، وقد بلغ منه التعب غايته .

وقرر أن يلتقط أنفاسه ، وحسبما تبدو الشمس فقد اقترب وقت الظهر ، والنهر الواقع بأسفل الطريق يسلب اللب بنسيمه المعتدل ، ويتلألأ تحت أشعة الشمس ويتراقص في مجراه بمياهه الفضية ، والظلال تغمر الشاطئين اللذين تزينهما أشجار الصفصاف .

وهبط إلى النهر وخلع بعض ملابسه وأخذ يتوضأ ، وهمس وقد أحس ببرودة المياة وهي تمسه قائلاً :

ــ يالك من مياة مباركة !

وفي أثناء وقوفه للصلاة شعر بأنه بلا جسد تقريباً ، وروحه تحلق في مكان ما بالمرتفعات وكان ينطق بكلمات الصلاة في همس ووجد ، وتلاشى النهر واختفت المروج والأشجار ، وهو يغوص في الاتساع العظيم وهو يضمحل بسبب المتعة التي كانت تسيطر عليه .

وحينما ختم الصلاة بالسلام وكأنما تنبه وعاد ثانية إلى الأرض وسكون الظهيرة يحيط به في ظل شجرة التفاح التي كان يصلي تحتها ، وتتألق بأعلى وسط زرقة السماء سحب صغيرة متفرقة وكأنها خراف متناثرة .

ومرت نملة في عجلة على ظهر يده وسقطت تفاحة على الأعشاب ، وسمع في أحد الأماكن على مسافة بعيدة صوت أحد الأشخاص وهو يطيل النداء ثم سكت هو الآخر ، وهلل طائر نقار الخشب بالتفاحة وأخذ ينقر بمنقاره على جذع الشجرة ، ونقراته القصيرة الجادة تدوي في السكون .

وفكر والنملة تسرع في الخطى ثانية على يده :

ـــ هل هذه هي آخر مرة أستظل فيها بهذا الجمال الإلهي ؟

وتمنى **إلهامي** أن تخمد أنفاسه إلى الأبد هنا تحت ظل شجرة التفاح هذه ، وأن تحلق روحه كما حدث منذ برهة وأن تتلاشى في العلياء .. ياله من أمر جميل ، ياله .....

ومن خلال الأغصان سأله أحد الأشخاص ولكن دون أن يظهر ـــ قائلاً :

ـــ أأنت **إلهامي** ؟

وارتجف **إلهامي** من الإنفعال وتسرب القلق إلى قلبه .

وسأله الصوت ثانية :

ـــ أأنت **إلهامي** ؟

وأزاح الأغصان ذلك الشخص الذي ألقى عليه السؤال ووقف أمامه ، وقد تلألأت على رأسه القلنسوة بريشها وسمع **إلهامي** قلبه وهو يدق حيناً ويتوقف حيناً آخر ، ثم يدق ثانية ويتوقف .

ورأى لدى القادم سيفاً ملتوياً يطل من تحت عباءته الواسعة ذات اللون الأحمر القاتم بلون الدم المتخثر ، ولذلك فكر قائلاً :

ـــ **الجلالي** !

وصدق القادم على كلامه بقوله :

ـــ أجل ، أصبتْ ، أنا **الجلالي** !

وظل **إلهامي** منتظراً وهو صامت . وازداد **الجلالي** منه اقتراباً . وسمع ثانية دقات قلبه .

ـــ بعثت في استدعائك إلى ترافنيك .

ـــ هاأنذا ذاهب .

ونطق بهذه الإجابة بصعوبة بسبب الجفاف الشديد الذي أصاب فمه .

ــ لا ينبغي أن تذهب ، ولا تتعب نفسك . لقد أخطأتُ وأنا نادمٌ على ذلك . عد إلى دارك . الحصان ينتظرك على الطريق ، والحراس المرافقون ينتظرونك حتى لا تمضي بمفردك نظراً لوجود قطاع الطرق .

وسمع **إلهامي** بوضوح وَقْعَ أقدام الجياد وأصوات الأشخاص .

ــ وأنت ، إلى أين تذهب ؟

هكذا سأله **إلهامي** دون أن يعلم سبب سؤاله عن ذلك .

ــ أنا ؟ لا أعلم لن أعود أبدا إلى ترافنيك .

ــ ولا تعد .

ــ لقد جئت إليك ولن أرتكب ذنوباً بعد ذلك . كفى ما كان .

ــ هيا إذن معي !

ــ إلى أين ؟

ــ إلى جيبتشه .

ــ وماذا سأفعل هناك ؟

ــ كن مؤذنا في مسجد **فرهاد باشا** وأنا أيضاً أعمل هناك . إنه مسجدي ، فأنا أعمل هناك إماماً وخطيباً .

وسكت **الجلالي** وكأنه يفكر وسمع صوته وهو يتنهد وكأنه بالضبط سينفجر في البكاء .

وقال **إلهامي** ثانية وفيه لم يعد جافاً :

ــ سمعت أنك كنت عالماً وأنك حافظ للقرآن .

ــ أجل ، كنت حافظاً للقرآن ونسيت الكثير منه .

ــ كن حافظاً ثانية !

وهمس **الجلالي** في تأثر

ــ إنني مذنب يا أخي ..

ــ الله رحيم .

ـــ حسن ، سأذهب مادمت قلت . وماذا سأفعل بالسيف . لم أعد في حاجة إليه .

ـــ حطمه .

ـــ تماماً ؟

ـــ هذا أفضل حتى لا يذكرك بـ ...

واستل **الجلالي** السيف ولكنه لم يحطمه ، بل هجم على **إلهامي** الذي انتفض من المفاجأة والخوف واستيقظ .

وسمع بأعلى ، على الطريق ، وقع أقدام الخيول وأصوات أشخاص . إنهم سائقو العربات والتجار يمرون في طريقهم إلى سراييفو لإحضار البضائع . ونهض **إلهامي** وألقى نظرة وهو لا يزال تحت تأثير النوم .

وصاح أحد الركّاب وهو يشير بيده نحو **إلهامي** قائلاً :

ـــ ها هو **إلهامي** !

ولوح له راكب آخر وصاح بشيء وكأنه يدعوه لكي يذهب معهم .

وجلس ثانية واستدار صوب النهر وبه رغبة لأن يكون بمفرده .

ورحل الفرسان الراكبون .

وهمس في وجل :

ـــ الشيطان ينقض عليّ دوماً ويختبرني .

ومر براحتي يديه على وجهه وأخذ يتأهب ، وألقى حقيبته عبر كتفه وأمسك بعصاه وتحرك بسم الله وهو لا يزال مرتبكاً .

□□□

□ □ ورافقه طوال الطريق الحلم السابق الذي رآه منذ فترة وجيزة ، ورؤيته **للجلالي** في المنام وشعر بمشقة جثمت على قلبه وتضغط عليه باستمرار وترهقه . وتلاشى تماما هدوء الليل وطمأنينة الصباح ، ونما أكثر فأكثر الخوف الكامن وزحف إلى قلبه وعبثاً . كرر عدة مرات أبيات الشعر التي صاغها في نيران النشوة وينطقها همسا في أغلب الأحيان كلما عاقه شيء عسير في حياته

« لم يعد شيء يعوق إلهامي
منذ أن هبطت عليه رحمة الله
إنه لا يريد العون من أي إنسان
قل بقلبك أيها الصوفي : الله ، الله ! »

ووجه اللوم لنفسه قائلاً : يا لضعف اعتقادي ، يا لضعفه ! يا ربي ، امنحني القوة لكي أتحمل ولكي لا يصيبني الوهن !

وأخذ يدعو من قلبه بينما كانت دموعه تحجب بصره قائلاً :

ـــ ساعدني لكي أتحمل هذه المحنة وأنا محتفظ بماء وجهي وطهارة قلبي .

ومن آن لآخر تجتاحه موجة باردة من اضطراب البال والخوف وتغمره حتى رقبته ، ثم تنهد ثانيةً في يسر ، وتهيأ له فجأة أن كل شيء سهل بشكل غير واقعي ، وحينئذ ارتجف ورفع رأسه وأسرع الخطى وكأنه يريد أن يصل بأسرع ما يمكن إلى ترافنيك ، وأن يقف أمام **الجلالي** وأن يقول له بابتسامةٍ هاأنذا ، تفضل . واصل أعمالك إذا لم تكن تخجل من الله وتخشاه .

وتطل من وسط الحقول الخضراء القرى والنجوع التي يمر بالقرب منها ، ويتضوع الهدوء الأسري من المنازل المغطاة بألواح مسودة من خشب البلوط ، والدخان يتصاعد من الكوات . ولم يبق إلا قليل من الوقت على حلول المساء . وسمع صوت الرعاة

وهم يتبادلون النداءات ويقف على التل هنا وهناك ، بعيداً عن منازل القرية ، منزل صغير منعزل أشبه بالكلب الرابض الذي يجلس القرفصاء وينتظر شخصاً سيحضر .

ــ من الأفضل أن أتحرك عبر القرى ، من قرية إلى أخرى . وإلى أن يصلوا إلىّ ويعثروا عليّ ..

وتسللت هذه الفكرة إلى رأسه وبدأت تنخر كالدودة في القلب والعقل أيضاً .

وتوقف وقال متأوهاً تقريباً :

ــ أيها الشيطان ، عليك اللعنة ، إلى متى ستختبرني وتجعلني أعاني ؟ اتركني وارحل .

ثم أسرع الخطى وبدأ يقرأ بصوت شبه جهوري :

ــ « رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون » .

وكرر هذا الدعاء للمرة العاشرة ثم للمرة المائة .

وقبيل المغرب وصل إلى بلدة « فراندوك » ، والغريب أنه كلما ازدادت الشمس قرباً من الغرب ، وازدادت رخاوة الظلال كلما عاد إليه الهدوء ثانية .

وتوقف بصره على برج قلعة « فراندوك » وتذكر حينئذ **سليمان أفندي** ، قاضي بلدة « ماجلاي » الذي تم سجنه منذ عدة سنين في فراندوك . ذهب للاشتغال بالقضاء في « فراندوك » ــ هكذا كان يتم الحديث ، عادة ، عن القُضَاة الذين يقضون فترة حبسهم ببلدة « فراندوك » ، لأن السجن الخاص بهم يقع في « فراندوك » ويعود بعض منهم والبعض الآخر لا يرجع . **فسليمان أفندي** كان مُسِنّاً وواهناً ولم يرجع على الإطلاق . ولم يكن مقدراً له أن يرى الشمس وأن يعود إلى منزله في ماجلاي وقد زاره **إلهامي** مرتين أو ثلاثاً . وكان العجوز يبكي على الدوام كالطفل يسأل دوماً عما إذا كانت شجرة البرقوق لا تزال حية . ويكرر بحزن : ــ لقّد اشتقت إليها يا أخي ! ..

واستمرت شجرة البرقوق تعطي ثمارها ، بيد أنه لم يكن مقدراً للقاضي البائس أن يذوقَها على الإطلاق بعد ذلك .

وتوقف **إلهامي** وقرأ الفاتحة على روحه . ومن بلدة « فراندوك » يطل في عبوس البرج الحجري العتيق .

□ □ □

□ □ وقرر أن يبيت ليلته في « فراندوك » .

وسبقته أخباره إلى « فراندوك » وساد الصمت الجميع حينما دخل إلى مقهى الخان الحافل بالناس والأحاديث والدخان . وقد حكوا عن رؤيتهم له في الطريق ، التجار وسائقو العربات الذين نزلوا بالخان ، أما الشخصان اللذان كانا من نفس بلدته جيبتشه فقد أسهبا في القول من عِنديَّاتِهما .

وحينما ألقى بالسلام ردوا عليه بصوت خافت ومطوا أعناقهم لكي يحسنوا رؤيته . وكان يسود المقهى شبه ظلام لأن الفوانيس لم تكن قد أُضيئت بعد ، فكان من العسير التمييز بين الوجوه ، وتزداد الرؤية وضوحاً عند موقد صنع القهوة .

ـــ ها ، أهو ذلك الشخص ؟

هكذا سأل شخص جالس في الركن ، بطريقة ناعسة وصوت خافت .

ـــ إخرس يا خنزير !

هكذا رد عليه **حمزة أغا** صاحب الخان الذي كان يجلس على الحشية من الناحية الأخرى لموقد القهوة . وهو رجل صغير الجسم ولكنه حانق ، ومن عادته أن يصب غضبه على الضيوف ويعلم ذلك جميع الذين يجيئون إلى « فراندوك » ويقدمون إلى الخان ، ولم يكن أحد يوجه إليه اللوم . حقيقة أنهم في بعض الأحيان يستفزونه عن عمد حتى ينفجر ويصب جام غضبه على أحد الأشخاص . ولكن **حمزة أغا** نهض من على الحشية بمجرد أن لمح **إلهامي** الذي كان يعرفه لأن هو شخصياً من قرية « جيبتشه » ، وهبط من على الأريكة العريضة التي ينام عليها خلال الليل وانتعل حذاءه الموضوع تحت الأريكة واتجه لمقابلة **إلهامي** .

ـــ أهلاً ومرحباً ! تفضل يا حضرة الأستاذ !

وأمسك بحقيبته وعصاه وساعده على الصعود على الأريكة .

ــ اجلس ، ها هنا !

وأشار بيده إلى الحشية التي كان يجلس عليها هو فحسب .

وجميع الحاضرين في المقهى ينظرون في صمت دون أن يصدقوا أن **حمزة أغا** بإمكانه أن يكون وديعاً إلى هذا الحد .

ــ من المؤكد أنك تريد قدحاً من القهوة ؟ وعندنا شراب من العرعر الجيد وصل منذ قليل .

ــ شكراً لك يا **حمزة أغا** . أريد في البداية أن أتوضأ وأصلي ثم بعد ذلك أفطر من صيامي .

ــ حسن .

واستمر الصمت سائداً في المقهى . واجتهد **إلهامي** في أن يلتقط كل كلمة من كلامهم وأن يتابع كل حركة من حركاتهم .

ــ سمعت أنك ذاهب ..

ــ أجل ، لقد تحركت قبيل الفجر .

وعلق ثانية صاحب نفس الصوت السابق قائلاً :

ــ المرء يذهب إلي حتفه بقدميه ..

ورفع **حمزة أغا** رأسه وصوب نظرة حادة في اتجاه الركن الذي تحدث منه ذلك الشخص .

وقال **إلهامي** بصوت خافت وقد بدأ يخلع ملابسه .

ــ سأتوضأ وأصلي بالخارج ، في الحديقة .

ــ حسن ، كما تشاء ..

وصاح **حمزة أغا** على الشاب الواقف عند موقد القهوة قائلاً :

ــ يا آدم ، هات الإبريق للوضوء . ضعه أمام الباب وأحضر منشفة !

ولما خرج **إلهامي** نهض **حمزة أغا** وصاح وهو متوجه إلي ذلك الشخص الجالس في الركن ــ قائلاً :

ــ أسمعت أيها الخنزير ابن الخنزير ، اجمع حاجياتك واخرج من هنا . أتهاجم مثل

هذا الرجل وتزيد من آلامه ، الخزي والعار لك ! لو أسعدك الحظ لتوسلت لأن تغسل قدميه ! وإذا كنت ثَمِلاً فلا تضايق الآخرين بتصرفاتك . أغرب عن وجهي !

وأطال هذا الشخص في ألفاظه وهو يقول :

ـــ ليكن ، ليكن .. رويداً !

وقال **حمزة أغا** وقد جُن من الغضب :

ـــ ياآدم ، يا **إبريش** ! اطردا هذا الخنزير !

وفي طرفة عين أمسك الشابان بتلابيب ذلك الشخص و لم يدفعاه وإنما نقلاه نقلاً . وقام أحدهما بإمساكه عدة مرات من خلف رقبته ، فتأوه ذلك الشخص وارتمى عبر العتبة في الفناء وأغلق الشابان الباب وساد هدوء في المقهى .

وأصدر **حمزة أغا** أمره قائلاً :

ـــ أشعل الفوانيس !

وتراقص الضوء الوامض على السقق المغطى بالسناج وعاد الناس إلى أعمالهم ، وصاح أحد الأشخاص طالباً قدحاً من القهوة وكوباً من شراب العرعر .

وبعد ذلك بقليل انفتح الباب ثانية وظهر **إلهامي** وقد شمر أكمامه ، وخلع طاقيته ، ووضع المنشفة حول رقبته ، ووراءه يقف ذلك الشخص الذي كان يجلس في الركن وقد أحنى رأسه وينظر أمامه .

وقال **إلهامي** متوسلاً :

ـــ يا **حمزة أغا** ، أطال الله عمرك ، دعه يبيت . إلى أين سيذهب الآن في الليل ..

ونهض **حمزة أغا** قائلاً :

ـــ حسنا ما دامت هذه رغبتك ، أما أنا فلم أكن لأسمح له . ولكن على ألا يعود إلى الغيبة .

وأجاب **إلهامي** في لين :

ـــ لن يعود ، لن يعود .

والتفت إلى ذلك الشخص قائلاً :

ـــ هيا ، يا ابني ، ادخل .

وعاد **إلهامي** إلى الحديقة .

ولما انتهى **إلهامي** من صلاة المغرب استمر جالساً على ركبتيه . وساعدته على الشرود سماء المساء التي سرعان ما حفلت بالنجوم ، وكذلك السكون الورع كلية ، الذي لايسمع فيه إلا غناء على وتيرة واحدة للجنادب ، وحلقت روحه عالياً فوق بلدة « فراندوك » وهنا على الحشائش ، بالقرب من الخان ، لم يبق فحسب إلا جسده وكأنه الخيمة المهجورة لروح **إلهامي** .

وتملكت النشوة نفسه ثانية . ولو نظر أحد آنذاك إلى وجهه لرأى أنه مشرق بالطمأنينة . كانت تلك لحظات مجيدة اشتاق إليها غاية الاشتياق وسعى بإصرار إلى تكرارها في أحيان كثيرة ، وعادت الشرارة الشاردة إلى مصدرها الأول ثانية ..

ونبهه **حمزة أغا** الذي يسير في الحديقة حاملاً المصباح في يده وقال :

ــ تملكني القلق وأنا أرى أنك لم تعد .

ونهض **إلهامي** في صمت .. وقال :

ــ هاأنذا يا **حمزة أغا** .

ــ واقترب منه **حمزة أغا** قائلاً :

ــ من المؤكد أنك قد جعت .. ؟ وكيف لا والنهار طويل !

ــ جعت .. ، لا ، لم أجع ..

ونظر إليه **حمزة أغا** في دهشته ، وتهيأ له أن **إلهامي** يجيب بلا وعي تقريباً .

ولما دخلا المقهى خفت الضجيج . وأمسك **إلهامي** بحقيبته وأخرج قطعة من فطيرة ملفوفة في منديل كبير ، ووعاءً صغيراً به كرة من الزبد .

ــ يا **حمزة أغا** ، إذا لم يكن لديك زحام شديد فأنا أريد أن تسخن هذه لي ..

ــ ولكن ، اترك هذا !.. من الأفضل أن نصعد إلى أعلى ، إلى حجرتي وتتناول إفطارك هناك . وأنا أيضاً لم أتناول طعام العشاء فيمكننا أن نأكل سوياً فسيكون الطعام بالنسبة لي أكثر لذة . وهناك ، على الأقل ، يمكننا أن نتحدث .

ــ كما تشاء ..

وحمل **حمزة أغا** حقيبته وصعدا درجات السلم إلى نهاية الممر حيث كانت تقع حجرة

حمزة أغا .

ـــ هنا ، هنا يا حضرة الأستاذ .

وأصدر الباب صريراً ، وتراقص الضوء الأصفر للفانوس في الحجرة . وتوجد بالحجرة أريكة وموقد خزفي عليه قدور صغيرة مزركشة ، وبجانبه مكان الاغتسال ثم دولاب حفظ الحشايا . ومعلق على الجدار بجانب الباب خنجر طويل وبندقية صغيرة .

وابتسم **حمزة أغا** قائلاً :

ـــ معذرة ، الحال عندي ، هكذا على طريقة العُزّاب .

ـــ ليكن ، ليكن ، المكان جميل .

ـــ اجلس أنت ، وسأعود !

وجلس **إلهامي** على الأريكة وأحنى رأسه وأغمض عينيه وبدا وكأنه قد استغرق في النوم .

وعاد **حمزة أغا** وهو يحمل صينية كبيرة حافلة بالأطباق .

ـــ هيا ، تفضل !

ـــ يا **حمزة أغا** ، بالله عليك ماذا ستفعل بكل هذا ؟

ـــ هذا ليس شيئاً خاصاً ! لو كنت أعلم أن الطريق سيقودك إلى هنا ، لكنت أعددت لك استقبالاً خاصاً أما والحال هكذا فهذا مما منحنا الله العزيز .. تفضل ، هاهو شراب العرعر .. تناول إفطارك .

وتناولا الأكل في صمت . وكان يحوم في الجو شيء كئيب ولكنه لايوصف بالرغم من أن **حمزة أغا** كان يجتهد أن يكون أكثر وداً .

ـــ كل وحياة دينك ! إنه ليس بالكثير ولكنك جعت ..

ـــ إنني آكل يا **حمزة أغا** .

ولما تناولا طعام العشاء غسلا أيديهما وأحضر **حمزة أغا** القهوة .

ـــ أتحبها بدون سكر أم ... ؟

ـــ بدون سكر .

ومن أسفل ، من المقهى يصل الضجيج ، ثم عزفت آلة العود وسمع الغناء الخافت

الحزين .

وقال **حمزة أغا** في غضب :

ــ إنهم يغنون ..

ــ ليكن ، فليفرحوا هذا أفضل من أن يحزنوا .

ــ هذا صحيح ، ولكن أيضاً .

هكذا قال **حمزة أغا** معاتباً لأنه بدا له من غير اللائق أن يتم العزف الآن ، الآن بالذات بينما **إلهامي** ...

وشرع **حمزة أغا** في الكلام وهو يتردد :

ــ يا حضرة الأستاذ أريد أن أسألك عن كل شيء ولكنني أشعر على نحو ما ..

ــ اسأل يا أخي **حمزة أغا** ، اسأل ..

ــ يقولون إنك ذاهب إلى مدينة ترافنيك ، وأنه استدعاك .. إلى هناك ذلك .

ــ استدعاني **ياحمزة أغا** ، استدعاني .

ــ لا أعرف ، فأنت أفضل من يعرف ولكن .

ولم يوضح **حمزة أغا** كلامه وكأنه خشي أن يجرح **إلهامي** إذا ماقال ذلك الذي يفكر فيه كلاهما .

وساد صمت ، وصرخ أحد الأشخاص بأسفل ، في المقهى .

واستطرد **حمزة أغا** قائلاً في غير ثقة .

ــ إذا كان من الممكن فأنا أحب أن أساعدك بأي طريقة .

ــ أن تساعدني ؟ بأي شيء ؟

ــ أريد وحياة ديني أن أساعدك بكل ما أستطيع !

ــ وأنا أرجوك .

وقال **حمزة أغا** في حيوية :

ــ لاترجوني ، سأفعل كل ما أستطيع . قل أنت فحسب !

ونظر إليه **إلهامي** بدقة ، وقال له بصوت خافت متوسل :

ــ إذا لم أعد ، والأمل مفقود في الرجوع ، اسأل عن قبري وضع فوقه شاهداً

إذا كان ذلك ممكناً . إنه ليس أمراً غريباً ، ولكن ليعرف الناس قبري ...

وقال له **حمزة أغا** بصوت مكتوم .

ــ لاتقل هكذا ، بالله عليك !

ــ لقد حل زمان غريب ياعزيزي **حمزة أغا** ، ولابد أن يكون الإنسان مستعداً لمواجهة كل شيء .

ــ وهل لابد أن تذهب ؟ من يجبرك ؟ ابق ! وفي الغد تظاهر بأنك راحل ثم عد ثانية في الليل وسنرى فيما بعد !

وانتفض **إلهامي** من هذا الذي يخاطبه بلسان **حمزة أغا** ؟ أليس هذا هو نفس الشخص الذي ظهر له اليوم في المنام في صورة وشكل **الجلالي** ؟ ذلك الشخص الذي أبعده عن نفسه اليوم لأنه طوال الطريق كان يهمس له لكي يحيد عن الطريق ويهرب .

ورفع **إلهامي** بصره وحملق بحدة في عيني **حمزة أغا** ، اللتين كانتا تفيضان بالخشية على مصيره ، هذا لايمكن أن يكون ، إن **حمزة أغا** يقول له ذلك من قلبه هذه ليست خدعة وليست حيلة شيطانية !

وهمس له **إلهامي** بمرارة شديدة :

ــ لايمكن أن يكون الأمر على هذا النحو يا**حمزة أغا** .

ــ كيف لايمكن ؟ من يدفعك إلى الذهاب ؟ من ؟

ــ أنا أدفع نفسي بنفسي ! هل الآن بعدما قلت ما كان عليّ أن أقوله عن هذا الزمان وعن اللئام الموجودين فيه ، هل أختفي الآن وأهرب ؟ لو فعلت ذلك لخجلت من نفسي وإذا كنت سألقى حتفي ، فليكن . إنني أُودعها أمانة لدى الله . لقد سددت ديوني بقدر ما عرفت واستطعت .

وأراد **حمزة أغا** أن يقول شيئاً ولكنه لم ينطق بل تململ على الأريكة وكأنه بالضبط أراد أن يخرج من ثيابه التي ضاقت عليه ، ثم أشاح بيده. وهمس :

ــ أنت أفضل من يعرف .

وصمت كلاهما لحين من الوقت ، كل منهما مع نفسه .

وسكت العزف والغناء ثانية ، وهمس **حمزة أغا** في غضب :

ـــ طوبى للحيوان ، فكل شيء يستوي بالنسبة له ...!

وسعل **إلهامي** وقال :

ـــ إنني سأرحل مبكراً **ياحمزة أغا** ولذا فمن الأفضل أن أبيت في أحد الأماكن على الدريس حتى لا أسبب إزعاجاً لأحد .

ـــ قسماً بديني لن تبيت في أي مكان آخر وإنما هنا بالذات .. وكلما تنهض وتتحرك سأسمعك وأرافقك .. هل الآن ...

وأراد أن يضيف شيئاً آخر ولكنه توقف فجأة .

ـــ حسن فليكن كما تقول .

وطرق أحد الأشخاص في نهاية درجات السلم وصاح قائلاً :

ـــ ياحمزة أغا ، ياحمزة أغا !

ونهض **حمزة أغا** قائلاً :

ـــ إنهم يستدعونني وأنت ياحضرة الأستاذ كما اتفقنا ، ولن أزعجك بعد ذلك سأحضر فقط لكي أعد لك الفراش ، وأنا ذاهب .

ـــ هيا ، هيا أنت ، سأقوم أنا بهذا ، هل الحشية هنا ؟

وأشار **إلهامي** بيده إلى دولاب الحشايا .

ـــ كل شيء هنا ، سأخرجها فقط وأنت بعد ذلك افرشها .

وبعد أن صلى **إلهامي** صلاة العشاء خلع ملابسه ونام ، وهدأ كل شيء تقريباً في المقهى ولفترة من الوقت تم سماع خطوات وبعض الكلمات المبهمة ثم انقطع حتى ذلك أيضاً ، والليل حافل بالنجوم وكل شيء حتّى ينام .

□ □ □

□ وفي الليل البهيم سُمع أمام الخان صوتُ دوي مكتوم وصياحُ وصليلُ الأسلحة ووقعُ أقدام الجياد ، وقَرعَ أحد الاشخاص بشدة على الباب الخارجي للخان بأسفل وصاح :

ــ افتح ، افتح يا صاحب الخان !

ــ واستيقظ **إلهامي** ونهض وهو على الحاشية وتنصت .. ومست الهواجس السوداء جسده مساً بارداً .

وأصدر باب الدخول صريراً ، وسُمِعَ صوتُ **حمزة أغا** وهو يُزمجرُ في غضب قائلاً :

ــ من بالباب الآن .. ؟

ــ واستمر سماع الطرقِ والصياح :

ــ افتح ، افتح يا صاحب الخان .

ــ انتظر ، هلكت ! لماذا الاندفاع ، إنه ليس حريقاً !

ثم سمع صوت فتح الباب مصحوباً بجلبة ، واندفع القادمون من الخارج إلى المقهى . وفجأة اختلط كل شيء : الأصوات والسباب والاستغاثة وكأن المقهى كله ينقلب رأساً على عقب . وفي بعض الأحيان كان يتبين الصوت الحاد **لحمزة أغا** وهو يتصايح بلا انقطاع مع أحد الأشخاص .

واستغرق ذلك ربع الساعة ثم هدأ كل شيء . وسمع أمام الخان ثانية صليل السلاح وأصوات بشرية ووقع أقدام الخيول إلى أن سكن هذا أيضاً . ورحلوا كما جاءوا في سرعة الرياح . وتم صَفقُ باب الخان وصدرت صلصلة المزلاج .

وبعد ذلك بقليل وارب **حمزة أغا** باب حجرة **إلهامي** وسأل في همس :

ــ هل تنام ؟

ــ لا أنام ؟

ـــ من المؤكد أنني أزعجتك

ـــ ما الأمر ؟ من الذي .. ؟

ـــ إنهم رجال الوالي يبحثون عن قطاع الطرق ، فقد سمعوا أنهم هنا حول « فراندوك » وقال لهم أحد الأشخاص إنهم في الخان .

ـــ ثم ؟

ـــ رحلوا . قال لهم أصحاب عربات النقل إن قطاع الطرق شُوهِدوا بالمنطقة المنخفضة ، في الغابة ، في الاتجاه المؤدي إلى بلدة جيبتشه . أولاد الكلب ، لقد قلبوا لي المقهى كله وقتلوا بحرابهم اثنين معافين من أصحاب عربات النقل ، أهلكهم الله .

وتنهد **إلهامي** . وتذكر لقاء الأمس مع قطاع الطرق . وفكر : من المؤكد أنهم سيقبضون عليهم ويقتلونهم . وشعر بالحزن من أجلهم . من يعلم ما الذي دفعهم للإقامة بالغابة .

وهمس **حمزة أغا** وهو يغلق الباب :

ـــ نم أنت ، فما زال هناك وقت حتى الفجر .

وهكذا في ضوء الشمعة و**حمزة أغا** يرتدي سرواله وقميصه لم يكن يشبه على الإطلاق **حمزة أغا** الذي كان بالامس منتفخ الأوداج ، بل كان يشبه الطائر الذي تم نتف ريشه .

ولم يتمكن **إلهامي** من النوم بعد ذلك فقد جثم الحزن الأسود على قلبه . وتملكه الحزن على نفسه وعلى الآخرين ، وتهيأ له أن الصباح لن يبزغ أبداً . وأخذ يقرأ القرآن بصوت خافت وتحسس الشمعدان في الظلام وأوقد الشمعة بمشقة واقترب من مكان الاغتسال وشرع يتوضأ .

وسرعان ما انطلق أول صياح للديوك .

ولما صلى أخذ يرتدي ملابسه ، وظهر **حمزة أغا** على الباب وكأنه لم يكن ينتظر إلا هذا .

ـــ هل عزمت على الذهاب ؟

ـــ ها أنذا أتأهب .

ـــ أيجب عليك أن تذهب ؟

واعتدل **إلهامي** قائلاً :

ـــ يا **حمزة أغا** أستحلفك بالله العظيم ألا تتحدث عن هذا بعد ذلك !

وخرج **حمزة أغا** في صمت وبعد ذلك بقليل عاد وفي يديه صرة .

ـــ لتكن في متناول يدك فمدينة ترافنيك بعيدة .

وأخذ **حمزة أغا** حقيبته وحملها .

وانبلج الصباح ، وسرج أصحاب العربة الخيول ، ودجاج الخان يخوض في وحل الفناء وينفض نفسه ، وحوله يتبختر ديك ضخم في غطرسة .

وتوقف **إلهامي** بعد أن خرجا من الفناء قائلاً :

ـــ سامحني يا**حمزه أغا** إذا لم نلتق .

وارتجف **حمزة أغا** وأمسك بيد **إلهامي** وأخذ يقبلها .

ـــ هَوِّن عليك يا **حمزة أغا** !

ـــ أنت لا تعلم بحالي ..

ـــ لا تحزن ولا ينبغي أن تحزن . ولكن لا أملك شيئاً أمنحه لك كتذكار سوى هذه المسبحة من مكة . خذها وتذكرني وتذكر ما رجوتك إياه .. أطال الله عمرك !

وتعانقا . وبكى **حمزة أغا** بصوت عال . وبعد أن ابتعد **إلهامي** صاح وهو يمسح دموعه :

ـــ سامحني .. وحافظ على نفسك !

وأخذ **إلهامي** يبتعد على مهل وقد قوس ظهره قليلاً وارتدى الجبة الطويلة السوداء وحمل الحقيبة على كتفه . **وحمزة أغا** واقف ينظر في إثره إلى أن اختفى .

□□□

□ □ كلما زحف النهار أكثر كلما زادت الحرارة الخانقة . وأخذت السحب القاتمة تتراكم ووفقاً لكل شيء فقد تبين أن الجو سيسوء.

وعند الظهر أخذت السماء ترعد ، وفي أحد الأماكن البعيدة وراء التل كان يصدر دوي مكتوم وكأنه يصل إلى ما تحت الأرض ، وببطء يتم الاستعداد لحدوث شيء عسير . وضغط السكون على كل شيء ولم تتحرك أية ورقة شجر وسكتت الطيور .

ولجأ إلهامي إلى قرية « زينتا » وقد صادفته بالقرب من بلدة « لاشنا » القطرات الأولى من المطر ، وهي قطرات ضخمة فاترة .

ومد خطاه . وتوجد طاحونة بأسفل ، بالقرب من النهر . ولم يكن يستطيع الالتجاء إلى هذا المكان ، فقد كانت بعيدة للغاية القرية الموجودة بأعلى ، على التل .

وكانت الطاحونة مهجورة ، ومفتوح على مصراعيه الباب الذي تحطم نصفه وبأسفل تحت الألواح المتباعدة للأرضية يزحف الماء ويدور في دوامات ويصدر خريراً ، ويسود شبه ظلام .

ودخل وأخرج أنفاساً متلاحقة ، وأنزل الحقيبة من على كتفه ومسح على وجهه العابس وأراد أن يجلس وتحرك شيء في نهاية الطاحونة وأخذ يزمجر .

وأصاخ السمع ولم تنقطع الزمجرة وسُمع صوت صراخ .

وتعودت عيناه علي الظلام فلمح كلباً يرقد في الركن ، وتحته يوجد شيء صغير يتململ ويُصدِرُ صراخاً .

وهمس قائلاً :

ــ إنها كلبة مع جِرَائِها .

ورق قلبه . أما الكلبة فقد نبحت في غضب .

ــ أيتها المسكينة سيئة الحظ ، إلى أين أتى بك الكرب ؟ من المؤكد أنك جائعة .

وتذكر الصرة التي أعطاه إياها **حمزة أغا** وأخذ يقلب في الحقيبة قائلاً :
ــ انتظري ، يوجد شيء لك ، عَلَيّ فقط أن أعثر عليه .
وقطع قطعة من اللحم المشوي وتوجه صوب الركن .
ونهضت الكلبة واقشعر بدنها ونبحت مهددة .
ــ إنظر إليها ! لا تخافي ، لن أفعل لك شيئاً ها هي القطعة فكلي !
وألقى لها بقطعة اللحم . وتشممتها الكلبة ثم أمسكت بها بإحكام وأخذت تلتهم بشراهة . وطقطقت العظام تحت أسنانها .
واقترب منها أكثر قائلاً :
ــ إليك المزيد ، ها هو !
ورآها الآن بوضوح ، لونها أصفر وتزحف تحتها مجموعة كاملة من الجِرَاء . و لم تعد تنبح .
وعاد إلى الركن الآخر واستند بظهره على العارضة الخشبية واتكأ بكوعيه على ركبتيه البارزتين ، وأسند رأسه على يديه وظل بلا حراك .
ورعدت السماء بشكل متلاحق وهطل المطر بلا رحمة ، وقرعت الرياح الأبواب ودفعت الأمطار إلى الطاحونة مباشرة . وحينما يدوي الرعد وتضعُف الرياح على فترات يُسْمعُ صُرَاخُ الجِرَاء .
وبدأت الصور تتتابع أمام عيني **إلهامي** .
وتراءت له قرية « جيبتشه » بمنظرها الجميل وتغمرها الشمس . ثم مسجد **فرهاد باشا** بلونه الأبيض مثل البجعة ، ولمح الزخارف بلونها الأزرق القاتم على السجادة الواردة من الكعبة والمفروشة في المحراب ، وأحس بنعومتها على راحتي يديه وجبهته . وتهيأ له أنه يسمع ذلك الصوت المعروف جيداً الصادر عن الصفوف التي تنهض وراءه .

وانطلقت المدافع ، إنه يوم العيد . والناس يقبلون على بعضهم ويتعانقون .
ــ إن شاء الله ، تمنياتي بسنوات مديدة في صحة وراحة . جمعا إن شاء الله !..
ونظر وانتفض ، وهمس في جزع :
ــ هل .. ثانية !
وأخذ باب الطاحونة يصفق بعنف نتيجة لهبوب الرياح .
ــ ياربي ، ساعدني ، امنحني القوة !
وتكرر ظهور الرعد ، ولم يتوقف تقريباً دويه الذي ارتجفت منه الأرض .
وبدا وكأن الأشجار والأحجار تتمزق وكان البرق يتوالى في شكل حبات ملتهبة تهرب أمام الرعد الذي يطاردها .
وأخذ يقرأ القرآن بصوت خافت قائلاً :
ــ « سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته » .
وساد الظلام ثم البرد . وعلى البعد يوجد شيء مشئوم يصدر هزيماً ، ويشرع في الاقتراب . وهاجت الصواعق وصدر صوت مدو داخل الطاحونة وكأن الاحجار تصدر فرقعة .
وهمس في خوف :
ــ إنه الثلج .
وفي المنطقة العلوية ، في القرية هرول المزارعون من منازلهم في اضطراب وأخرجوا الموائد وحمالات المواقد وقلبوها صوب السماء وأخذوا يؤذنون . وكان ينبغي أن يسمع الآذان الملك الكفيف الذي يتقدم العاصفة وأن يحيد عن طريقه وبذلك يبعد الثلج عن مزارعهم .
وفجأة حدث هرج ومرج أمام الطاحونة ، فقد أخذ أفراد كتيبة كاملة من عساكر الوالي ، وهم مبللون ومفزعون ، يتقافزون على خيولهم ويركضون إلى داخل الطاحونة وصلت الخيول المضطربة وعلا صياح الرجال . وكانوا يحملون جندياً جريحاً ويدفعون شخصاً آخر مقيداً وأوقفوه بجانب الحائط .
ونظر إلهامي في صمت ونبحت الكلبة في حنق وهي تقف أمام الجحر الذي كانت

تتقلب فيه الجِرَاءُ العَمْيَاءُ ، واحداً فوق الآخر .

واشتدت العاصفة ، وبدا وكأن الطاحونة ستنفصل في أية لحظة عن الشاطيء وتهوي إلى الماء والعسكر صامتون وينظرون في جزع وينتظرون وتسيل الدماء من بعضهم وكل منهم منشغل بنفسه .

ولم يهتم أحد **بإلهامي** ، إلا ذلك الشخص المقيد فقد رفع رأسه وحدق ببصره فيه ولم ينزل عنه .

وتعرف **إلهامي** علي شخصيته ، لقد كان هو ذلك الأعور رئيس قطاع الطرق الذي التقى به بالأمس . وفجأة اتضح كل شيء **لإلهامي** : أنهم نفس عساكر الوالي الذين اقتحموا بالأمس خان **حمزة أغا** ورحلوا لكي يطاردوا قطاع الطرق ، فإما أنهم قتلوهم وإما فرقوا شملهم . أما الأعور فقد أمسكوا به حياً ، ومن المؤكد أنهم يقودونه الآن إلى ترافنيك لكي يقتسما معا نفس المصير .

وأخذ الأعور يحاول بمشقة النهوض والجلوس ، ووجهه يتضرج بالدماء ومنتفخ وهو ينظر بلا انقطاع إلى **إلهامي** بتلك العين الواحدة الضخمة الجاحظة . وكما تهيأ **لإلهامي** فقد حفل بصره بالأسى واللوم .

وتذكر وهو يرتجف :

ــ ربما يظن أنني ..

وأخذت العاصفة تخبو وانقطع الثلج وسكنت الرياح ، وسرعان ما انزاحت السحب وظهرت السماء الصافية وسطعت الشمس وتضوَّعَ كل شيء برائحة الجو المنعش .

ودبت الحياة والنشاط في عساكر الوالي وحدث بينهم هرج ومرج وصاح أحدهم :

ــ أيها الشباب ، ماذا حدث للخيول ، انظروا ماذا حدث للخيول ! حتى لا يكون هناك سير على الأقدام .. !

ــ ها هي هناك تحت الشجرة يا **مراد أغا** لا تقلق !

ــ هيا ، ماذا تنتظرون ، اجمعوها لكي نرحل فقد حان الوقت .

وتدفق عساكر الوالي من الطاحونة . وصاح الجريح وهو يمسك بطنه بيديه :

ــ الماء يا **مراد أغا** ، الماء !

ـــ انتظر .. لا أعرف فيما أحمل لك الماء ؟ فقد تركت زمزميتي على الجواد .
ـــ ليكن ، سأشربه أنا .. !
هكذا قال **إلهامي** وهو يخرج الإناء من حقيبته .
ـــ يمكن أن يشرب في هذه ..
والثلج بالخارج يبيض ويتلألأ في الشمس ، وقد بلغ ارتفاعه مقدار أصبع .
ـــ اشرب يا أخي !
هكذا قدم **إلهامي** الماء الجريح بعد عودته بالإناء مملوءً . وشرب الجندي في نهم .
ـــ على مهل ، على مهل ، لا تتعجل .
ثم خرج ثانية ، ولما عاد استقبله الأعور بالنظر إليه ، وكان يستحلفه في صمت .
ـــ أتريد أنت أيضا ، اشرب يا أخي ..
وصاح **مراد أغا** :
ـــ لا تعطه ! قف !
ولم يبعد **إلهامي** الإناء وأخذ الأعور يرتشف كالمجنون والماء يسيل على لحيته .
وصاح **مراد أغا** وهو يضرب الإناء من يده :
ـــ ألم تسمع ما قلته لك !
وسقط الإناء وأصدر دوياً ونبحت الكلبة .
وجحظت عينا **مراد أغا** وهو يسأل :
ـــ من قال لك أن تُعطِيَه ؟
ـــ قال إنه عطشان ..
ـــ فليهلك .. أتعلم من هو ؟
ـــ أعلم ..
ـــ من ؟
ـــ إنسان .
ـــ إنسان ! قاطع الطرق ليس إنساناً . أسمعت : إنه قاطع طرق . ومن أسوأهم إنه يستحق المشنقة !

فإنني لا أعرفه بهذا الشكل ..

وقال **مراد أغا** في استهزاء :

ــ إنك لا تعرفه ! فبأي شكل تعرفه ؟ ربما ولد على يديك ؟

ــ لا ، ولكني التقيت به .

ــ أين التقيت به . ؟

ــ بالأمس في الغابة ، بأعلى قرية جيبتشه .

ــ استقبلك ؟ فاستعبدك !

ــ لا والله ، لم يحدث . استقبلني أشخاص آخرون وقادوني إليه . وأخذوا مني كيس نقودي فأعاده لي وعرض عليّ الطعام .

ونظر إليه **مراد أغا** في دهشة وابتسم في سخرية قائلاً :

ــ يبدو أنك قليل .. ؟

وأدار أصابعه فوق رأسه .

ــ ربما ولكني أقول ما حدث . وأعطاني نقوداً أيضاً حينما رأى أنني لا أملك أكثر من بضعة قروش ، وأعطاني مائة وقال لكي تكون في متناول يدك ..

ونفد صبر **مراد أغا** واقترب من **إلهامي** حتى أصبحا وجهاً لوجه .

ــ يبدو أنك تدافع عنه ؟

ــ الله يشهد بأن الأمر كان على هذا النحو .

ــ انتظر ! من أنت ؟ ومن أي بلد ؟

إنني درويش من جيبتشه .

ــ أين تصريحك ؟ أعطني التصريح !

ــ ليس لدى تصريح ، ولكن لدى رسالة من القاضي

ــ أعطني . أين هى ؟

وأخرج **إلهامي** الرسالة .

وأخذ **مراد أغا** الرسالة وفتحها وبدأ يلقي نظرة عليها .

ــ إنها باللغة التركية .. أتعرف ما هو مكتوب فيها ؟

ــ أعرف .

ــ قل كي أسمع !

وسعل **إلهامي** وقال :

ــ فيها أن **عبد الوهاب بن عبد الوهاب الجيبتشاوي** ، المدعو **إلهامي** ، إمام وخطيب مسجد « **فرهاد باشا** » في جيبتشه .. وأنا هو هذا الشخص ، يتوجه إلى ترافنيك بناء علي أوامر والي السلطان **جلال الدين علي باشا** .

ــ أهكذا تقول الرسالة بالضبط ؟

ــ هكذا .

ــ فلماذا تمضي سيراً على الأقدام ؟ أين جوادك ؟ ولماذا تكون بمفردك ؟

ــ بمفردي ؟.. لم أكن مطلقاً بمفردي .. إن الله فوقي . وفي نفسي إثنان ، نتبادل الحديث أثناء الطريق ، ثم أقوم بالصلاة وحينئذ أكون أكثر اطمئنانا . واحب السير على الأقدام لأنني لا أريد أن أُعذِّب الحيوان .

ــ لقد التقيت بأشخاص كثيرين ولكني لم ألتق بشخص مثلك ..!

ولَوّحَ **مراد أغا** بكلتا يديه واستطرد قائلاً :

ــ وهل لا تعرف لماذا يستدعيك الوالي .. ؟ لا يمكنني أن أقول إنك عالم وإنك مستدعى من أجل ذلك .

ــ تقول الصواب ، إنني لست عالماً . انني مسكين ككثير من الناس .

وصاح أحد العساكر من علي الباب :

ــ يا **مراد أغا** ، ها هى الخيل ، وعددها تمام .

ــ هيا ، ضعوا هذين الرجلين لكي نرحل .

ثم التفت نحو **إلهامي** وقال :

ــ وأنت دعك من الرحمة لأن الأشخاص أمثال هذا يمكنهم أن يقضوا . عليك هذا هو ما أقوله لك .

وابتسم **إلهامي** في حزن وقال :

ــ من لا يرحم الآخرين فلا يطلب الرحمة لنفسه أيضاً . رأيت منذ قليل حينما أبرقت

السماء ورعدت إن الخوف تملك الجميع فكيف سيكون الحال يا أخي إذا الشمس كورت وإذا الجبال سيرت وإذا البحار فجرت وإذا القبور بعثرت وإذا الجنة وجهنم أزلفتا . كيف سنطلب الرحمة عندئذ ما دمنا نفتقدها في تعاملنا مع الآخرين .

وأراد **مراد أغا** أن يقول شيئاً ثم أشاح بيده ومضى في صمت .

وبينما كانوا يجرون الأعور من قدميه توقف **مراد أغا** عند الباب وقال للعسكر

ــ انتظروا ، احملوه .

وودع الأعور **إلهامي** بنظراته .

وظل **إلهامي** بمفرده ، ووقف لفترة من الوقت وهو مطرق الرأس لا يتحرك ويتملكه الحزن إلى أن تلاشى تماماً وقع أقدام الخيول .

ثم انتبه وأخذ حقيبته وأخرج كل الأشياء التي حصل عليها من **حمزة أغا** وأخذ يرتبها أمام الكلبة قائلاً :

ــ ها هو لك اللحم والفطيرة .. وكل شيء ! هذا هو رزقك ، أنت أولى مني !

وناحت الكلبة ولوحت بذيلها ، وكانت الأجْراء العمياء تتقلب تحتها وتصرخ ، وهمس في بهجة :

ــ ايه يا صاحبي **حمزة أغا** ، لو تعلم فحسب مقدار الثواب الذي نلته !

ثم خرج من الطاحونة وهبط إلى الماء لكي يتوضأ . ولم يكن أمامه مكان يصلي فيه ، فقد كانت الأرض مبللة بالخارج والأرض في داخل الطاحونة غير طاهرة ولذا فقد قرر أن يصلي الظهر في أحد الأماكن أثناء الطريق . وقبل أن يتحرك نظر مرة أخرى إلي الركن الذي يصل منه بلا انقطاع صراخ الجِرّاء العمياء .

ــ ايه ، يا مخلوقات الله ، كم منك سيستمر في الحياة ؟ في أي مكان ستتفاهمين ؟ إلى أي مدى ستصلين ؟

وزاد من حزنه تفكيره في الأعور .

ــ كلنا بؤساء وبنا كرب . فليكن الحبيب في عوننا .

وصعد على جانب الطريق إلى أن وصل إليه .

□ □ □

□ □ كان الطريق مليئاً بالبرك والوحل ، وينسحق تحت الأرجل الثلج الذي لم يذب وسواء شاء أم لم يشأ كان لابد أن يسير فى الوحل والماء ، وتفتق حذاؤه تقريباً من أعلى .

ومن المؤكد أن النظر إلى شيء يثير الحزن ، فثمار البرقوق الزرقاء الناضجة الممتلئة ترقد تحت الأشجار المبتلة التى تتدلى منها الأغصان المحطمة ، والأوراق ممزقة على أعواد الذرة القوية وسيقانها مهشمة . وحدث نفس الشيء مع باقي المحاصيل والفواكة . وكانت السماء فحسب صافية ونقية وبها قوس قزح متلألىء يمتد من تل إلى تل . ومن كل شجيرة وشجرة يصل تغريد الطيور أشد رنيناً وأكثر بهجة من المعتاد .

وهمس **إلهامي** وهو يلقي نظرة على الخراب الموجود حوله قائلاً :

ـــ يا لها من خسارة غريبة ! ...

وسرعان ما صادف خيام الغجر الذين أقاموا معسكراً في أرض الرعي بجانب الطريق نفسه . وكانت النساء تنفخ في النار الموقدة أمام الخيام السوداء المبللة بينما ترعى في مراعيها الخيول النحيفة التي لا تزال مبتلة بسبب سوء الأحوال الجوية . ويتجمع بعض الرجال حول عجل معلق في فرع شجرة تفاح برية منعزلة .

وبمجرد أن لمح الأطفال **إلهامي** هرعوا لمقابلته قائلين :

ـــ اعطنا قرشاً ، أعطاك الله ياجد ! لاتنصرف دون أن تعطينا أعطاك الله .

ومدوا أيديهم وجذبوه من جبته . وتوقف **إلهامي** ومنح الأولاد قرشاً أو اثنين ثم توجه إلى الرجال .

ـــ أتذبحون أيها الرجال الطيبون ؟

ـــ نذبح ! لقد قتلت العاصفة العجل فوهبته لنا . انظر ؟ كل جلده محروق ولحمه من هذا الجانب مشوي تماماً . أنظر ؟ لقد تفحم .

ـــ وهل يمكنني أن أطلب منكم شيئاً أيها الرجال الطيبون ... ؟ وستثابون عليه .

ــ هيا لنسمع ! ربما سنتفق .

وسعل **إلهامي** وقال :

ــ بأعلى في الطاحونة ترقد كلبة وقد وضعت المسكينة صغاراً ، فأردت أن أرجوكم أن تحملوا شيئاً لها . ولستم مضطرين لأن تفعلوا ذلك اليوم ، يمكنكم أن تقوموا به غداً . وإذا لم يحضر لها أحد أي شيء . هناك خوف من أن تهلك المسكينة ، هى وصغارها . وأنتم هنا قريبون منها ويمكنكم أن ...

ــ نحن هنا يا أستاذ ، هنا على الدوام . وهذا الوالي الجديد لا يسمح لنا بالتحرك . سنهلك ! ما هذا ، ما الذى يجري ، لم يكن الحال هكذا أبداً ! لقد كان صناع المراجل يذهبون أينما يريدون . ونسمع الآن أنه محظور على الأغوات والبكوات ، وعلى أي شخص آخر ، أن يتحرك بدون تصريح . ولا يمنحونا تصاريح نحن صناع المراجل . وتوجهت أنا بصفتي رئيساً للغجر لكي أسأل وأبحث فكاد رجال الوالي أن يقتلوني وهجموا عليَّ كالذئاب ! إنني لم أَمْثُل أمام القاضي فما بالك بالمثول أمام الوالي ! غير سليم هذا الذي يفعلونه ! أي زمان هذا وأي والٍ هذا ... ؟

وتنهد إلهامي قائلاً :

ــ الأمر عسير ، عسير . لم تقل لي ، هل ستسمع كلامي ؟

وأجاب رئيس الغجر وهو يخرج الأمعاء الدافئة من جسد العجل . قائلاً :

ــ ممكن ، لا أقول إنه ليس من الممكن . ولكن تعرف أن الكلاب الصغيرة تأكل كثيراً ، وعلى الأخص الكلبة حينما تضع صغارها !

ــ سأهديك شيئاً ! هاهى .. تلك القروش العدة . هذا هو كل ما أملك . لو كان لديَّ أكثر لأعطيتك ، صدقني ! ...

ــ هذه القروش حسنة أيضاً . أرى أنك شفوق فسنسمع كلامك . وأين قلت إن الكلبة موجودة ؟

ــ في المنطقة المرتفعة ، فى الطاحونة ، ليس ببعيد عن هنا . تقطعها فى أقل من ربع ساعة . والطاحونة لا تعمل ولا أحد يدخل فيها ولذلك ...

ــ آه ، في الطاحونة.. أعلم ، أعلم ، وكيف لا أعلم . سنرسل الغلمان لكي يحملوا

شيئاً لها . وستكون هناك عظام و ... وستوجد بعض الأشياء ، لا تقلق . وإذا كانت كلبة جيدة فيمكن أن نأخذها لأنك كما تعلم ، نحن في حاجة إليها ! ...

وإنبسطت أسارير **إلهامي** وقال :

ـــ أطال الله عمرك ومنَّ عليك ! وسيكون ثوابك كبيراً ! وكأنه لا يوجد من يزورها . وهى أيضا من مخلوقات الله ...

ـــ أجل ، نعلم هذا ، ولكن أنظر كيف يسير هذا الأمر : العدالة مختلفة بالنسبة لكل شخص ! هناك أشخاص مثلك يهتمون حتى بأمر الكلبة ، أما نحن فلا أحد يهتم بأمرنا كما أقول لك ، هذا الوالي أسوأ من الجميع . والله إن الناس يلعنونه كلما استطاعوا . ونحن أيضا نلعنه ! ماذا نفعل في هذا المرج القفر ؟ لو كان مثلك فيهتم بالكلبة التي وضعت صغارها ولكن هيهات ، هيهات ! إنه لا يمنح الناس الهدوء . المرأة « دلوه » قرأت له الطالع وتقول إنه لن يستمر لفترة طويلة .. « ودلوه » تعلم وهو لايعلم !

واحتشد الجميع حول **إلهامي** ، الرجال والنساء والمسنون والشباب ، بل وعدة كلاب ترافقهم في ترحالهم وتلف الآن حول العجل ، ودس أحد الصبيان يده خلسة في حقيبة **إلهامي** الذي أحس بذلك فالتفت وابتسم قائلاً :

ـــ لايوجد بها شيء يابني ، لايوجد بها شيء .. فلا تبحث .

وسبه رئيس الغجر في غضب قائلاً :

ـــ يا روشكو ! عليك اللعنة !

وضرب الغلام على رأسه بالكبد التي أخرجها .. وانفجر الجميع في الضحك ، وقال رئيس الغجر **لإلهامي** :

ـــ لاتقلق مطلقاً ستحصل الكلبة على نصيبها وسيكون كلباً من يكذب ! ولكن إلى أين أنت ذاهب ؟

ـــ إلى ترافنيك .

ـــ ياه ، إلى ترافنيك ! هيا ، لتصحبك السلامة لو دعوني إلى هناك لتناول الحلويات ما كنت لأذهب ، وأحب أن أرسل إلى الوالي هذه القطعة .. وأشار رئيس الغجر إلى المنطقة الواقعة تحت ذيل العجل ، وانفجر الجميع ثانية في الضحك .

ــ كنت أريد أن أدعوك لكي تبقى وتجلس معنا قليلاً وتأكل ، ولكن من المؤكد أنك ...

ــ شكراً لكم أيها الناس الطيبون .

ــ يا « دلوه » قولي للأستاذ ماذا قرأت في الطالع ، ماذا يقول الطالع للوالي ؟ وكانت المرأة العجوز عديمة الأسنان ووجهها حافل بالتجاعيد وكأنه « مشمع » ، به الكثير من الثنايا ، وأخرجت الغليون من فيها ، وبصقت ، ثم ضربت الأرض بقدميها .. وفسر رئيس الغجر حركاتها بقوله :

ــ تقول « دلوه » إنه لن يدوم زمناً طويلاً ، وتقول إنه سيموت قريباً إن شاء الله ، وسيصدق كلام « دلوه » .

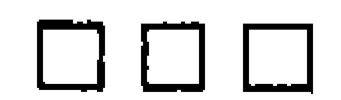
وشكر **إلهامي** رئيس الغجر مرة أخرى وقال :

ــ واهتموا بتلك المخلوقات ، أطال الله في أعماركم !

ــ ها هو الحال كما ترانا ! وأقول لك ثانية .. فليهلك الكاذبون . لقد وعدتك !

وتحرك **إلهامي** على الطريق وهو نشيط ومبتهج .

وبدأ رئيس الغجر يُقَطِّع العجل أربعة أجزاء ، وكانت النار تحت المراجل قد اتقدت وتم إعداد وليمة وفيرة .



□ □ وكلما زاد ابتعاد **إلهامي** ، كلما قلت رؤية آثار سوء الجو ، وكأن الثلج قد مر على هذه المنطقة فحسب .

وسرعان ما صادف قرية ، ولمح مئذنة خشبية منخفضة فى نهاية القرية فابتهج لذلك .

وصعد إلى الأريكة ونوى صلاة الظهر . وبعدما أنهى ركوعه احتشد بعض صبيان القرية أمام المسجد وهم ينظرون فى فضول واقترب أحدهم ورفع عصاه الدرويشية الثقيلة المستندة بجانب الأريكة .

وابتسم **إلهامي** وهو ينتعل حذاءه قائلاً :

ــ ماذا ، أهى ثقيلة ؟

واقترب أحد الفلاحين يرتدي سروالاً أبيض من قماش سميك وقميصاً ويضع حزاماً من قماش أحمر حول وسطه ومنديلاً مزركشاً حول عمامته .

ــ السلام عليكم !

ــ وعليكم السلام .

ــ مرحباً بك .

ــ مرحباً .

ولفترة من الوقت وقف الفلاح فى صمت ونظر إلى **إلهامي** ، ونظر إليه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه .

ــ يبدو أنك غريب ؟

ــ أجل .

ــ وهل يمكن معرفة من أي بلد أنت ؟

ــ من جيبتشه .

ــ أذاهب إلى أحد الأماكن ؟

ـــ إلى ترافنيك .

ـــ إلى ترافنيك ! .. جميل ..

ـــ هل أنا بعيد عنها ؟

ـــ كيف أقول لك ... إذا أسرعت فيمكنك أن تصل إلى قرية « فيتز » عند المغرب . ولا يمكنك دخول ترافنيك بعد المغرب ، إنهم لا يسمحون بذلك ...

ـــ لا يسمحون ! !

ـــ لا ، لا يسمحون ...

ورفع الفلاح رأسه وظل فاهُ مفتوحاً ولكنه لم يقل شيئاً أكثر من ذلك . واستمر فحسب ينظر إلى **إلهامي** .

ـــ إذن فسأسرع حتى أصل على الأقل إلى « فيتز »

ـــ أو ليس لديك جواد ؟

ـــ لا .

وربت **إلهامي** على الصبيان وانصرف قائلاً :

في رعاية الله .

فقال الفلاح بصوت خافت :

ـــ في رعاية الله .

واستدار وظل ينظر في إثره .

□ □ □

□ □ كان يسرع ، وكأن نشاطاً عجيباً قد استولى عليه . وفجأة توقف وابتسم لنفسه قائلاً :

ــ ولكن ، لماذا أسرع بهذا الشكل ، ... لقد قال رئيس الغجر إنه لن يذهب إلى ترافنيك ولو لتناول الحلويات ، وأنا ...

ولأول مرة منذ أن رحل عن جيبتشه أخذ يفكر فى **الجلالي** . وفي هذه المرة كان يفكر بهدوء وبدون ذلك الخوف الكامن والقلق اللذين كانا يستوليان عليه حتى الآن عند تفكيره في **الجلالي** . وغداً أو بضعة أيام سيلتقي به وجهاً لوجه . ورغم أنه لم يكن متردداً بشأن ما سيقوله له إلا أنه تساءل كيف سيمضي لقاؤهما وحديثهما هذا ، وكيف يبدو شكل **الجلالي** ؟ هل هو مماثل للشكل الذي رآه به في الحلم ؟ في ظاهره لطيف ، وذو قلب كبير ثم فجأة يصبح كلمعان السيف المسلول ... وكم عمره ؟ وهل هو ــ ربما ــ ضخم ، وعَبُوسٌ وحركاته ثقيلة ، وصوته مبحوح ونظراته شريرة ؟ هل سيهاجمه أم سيسمح له بأن يقول ما عزم على قوله ؟ .. وقد سمع أن **الجلالي** ماهر وسريع فى كلامه ، ولا مثيل له فى ذلك ، بل إنه يُقْرِضُ الشعر وحافظٌ للقرآن ويشتغل بالعلم ويحب كل ما هو جميل .. فإذا كان كل هذا صحيحاً فكيف يمكن أن يصنع ما يصنعه ، أم ربما من الحتم أن تكون الحال على هذا النحو بالضبط ...

وعند المغرب بالضبط وصل **إلهامي** إلى قرية « فيتز » وهو مشغول بأفكاره تلك ، ودون أن يعرف كيف حدث ذلك .

وبينما كان يتوضأ على شاطىء نهر **لاشفا** سَمِعَ الآذانَ من المسجدِ الموجود في قرية فيتز . ونَشَّفَ **إلهامي** نفسه ، وأنزل أكمام الجبة ، وانتعل حذاءه ، وشد أطراف الجبة عليه . وأخذ حاجياته وأسرع . ووصل إلى المسجد فى اللحظة الأخيرة .

وبعد صلاة المغرب كان بين أول الخارجين منه ، وبينما كان ينتعل حذاءه وهو جالس

على الأريكة أخذ يفكر فى المكان الذى سيبيت فيه ، خاطبه أحد الأشخاص بقوله :
ــ يا حضرة الأستاذ ، أهو أنت ؟

وكان الفانوس الموجود أمام المسجد يلقي ضوءاً ضعيفاً فرفع رأسه وتملكته الدهشة وهو ينظر إلى رجل مسن صغير الحجم يقف أمامه ويبتسم . وهو يرتدي الجبة والعمامة على رأسه . ومن ملابسه وصوته عرف **إلهامي** أنه الإمام الذي كان يصلي خلفه منذ قليل .

ــ هو أنا ...

ــ طبعاً لا تعرفني ، ولكني أعرفك معرفة جيدة ! رأيتك في التكية في جيفتشيتش منذ ما يزيد على ثلاثين عاماً ! وتعرفت عليك على الفور . ماشاء الله ، لم تتقدم بك السن كثيراً وأنا **طوبال خوجة** ، **عمر طوبال خوجة** ، إمام المسجد ...

ــ صحيح ...

ــ لا تعرف مقدار سعادتي لرؤيتي لك ! آه يا حضرة الأستاذ .

وشبك **طوبال خوجة** يديه على صدره وهو غاية في السعادة التي ظهرت على وجهه وفي عينيه .

وأخذ الناس يتجمعون حولهما . والتفت **طوبال خوجة** إلى الجماعة التي كان أغلبها من الفلاحين الذين يرتدون السراويل البيضاء السميكة وصديريات سوداء ، وعدد قليل منهم يرتدي ملابس أهل المدن : سراويل من الجوخ وجبة .

وقال :

ــ أيها الأخوة ، هذا هو الشيخ **إلهامي** ! إنكم جميعاً سمعتم عنه . وإذا لم يكن ، فقد سمعتم على الأقل قصائده .

ووقف الناس على أطراف أصابع أقدامهم لكى يحسنوا رؤيته ، وصعد بعض منهم على الأرائك .

واستطرد **طوبال خوجة** قائلاً :

ــ أهلاً وسهلاً بك ، سيكون ضيفي ، لم أسألك عن وجهتك ، من المؤكد أنك متوجه إلى ترافنيك ، إلى الأستاذ ؟ ...

وأجاب **إلهامي** بصوت خافت :

ــ أجل ، إلى ترافنيك ..

ــ ليكن ، حسن . وسنجلس قليلاً حتى صلاة العشاء وبعدها إن شاء الله . وأيا كان الحال فلا يمكنك أن تذهب الآن إلى ترافنيك . أهذه هى حاجياتك ، وأين جوادك ؟

وأمسك **إلهامي** بالحقيبة قائلاً :

ــ لا أملك جواداً . كنت أمضي سيراً على الأقدام .

ــ ومن أي بلد بالله عليك ؟

ــ من جيبتشه .

ــ آه ، بالله عليك يا حضرة الأستاذ ! وتعبت بالطبع ؟ ومتى تحركت ؟

ــ بالأمس ، قبيل الفجر ...

ــ وهل كان يوجد ثلج بالأماكن التي مررت بها ؟

ــ أجل ، وتوجد أضرار كثيرة .

ــ الحمد لله أن الثلج لم يسقط عندنا . لقد هطل المطر وهبت العاصفة ولكن ــ الحمد لله ــ لم يسقط الثلج .

وأخذ **طوبال خوجة** الحقيبة من يده وسمح له بالمرور من الجانب الأيمن .

ــ على أية حال ستستريح الليلة . تفضل !

وسار الناس وراءهما ، وفى الطريق تهامسوا عن **إلهامي** بينما **طوبال خوجة** يكرر باستمرار :

ــ آه ، لا تعرف مقدار سعادتي . من كان يتعشم أنك ستأتي عندنا .

وتفوح من القرية رائحة الدخان ، واللبن الطازج ، والأعشاب الناضجة ، والمحاصيل ، ونقيق الضفادع يسمع من نهر لاشفا . ووراء أبواب المنازل المغلقة تدور النسوة حول المواقد المشتعلة . وتخرج إحدى الكلمات المنطوقة وتطير من المنزل كطائر وتختفي في الظلام . وتفرق الناس في أثناء الطريق . وكلما يصل أحد منهم إلى منزله يستدير إليه .

ــ في رعاية الله .

ـــ في رعاية الله يا ميشان ...

ووصلوا إلى منزل بائس مائل ومنخفض يقبع على تل صغير فوق الطريق نفسه .

ـــ ها نحن قد وصلنا !

وتوقفوا وكان عدد الباقين سبعة أو ثمانية .

ـــ أيها الإخوة ، حضرة الأستاذ سيستريح قليلاً ثم نذهب إن شاء الله لصلاة العشاء . وكنت أريد أن أدعوكم عندي في المنزل ولكن تعلمون أن المكان عندي ضيق للغاية والأستاذ متعب أيضاً .

وبرز رجل حسن المنظر متوسط العمر يختلف ملبسه عن الباقين ـــ قائلاً :

ـــ ولماذا لا يأتي الضيف عندي ؟ فلديَّ مكان للجلوس والمبيت ! فلماذا نتزاحم عندك ؟

وكان هذا الرجل يسير طوال الوقت بجانبهما ولكنه لم يتدخل في الحديث . وبينما كان يتحدث الآن يبدو وكأنه يحتد على **طوبال خوجة** .

وأجابه **طوبال خوجة** في الحال وهو يبتسم باستمرار :

ـــ إيه يا صاحبي **سينان بك** لو كان الحال وفقاً لذلك الأمر فسيتزاحم الناس في القبور أيضاً ، ولكن البعض لن يشعروا بضيق المكان هناك ...

وقال **إلهامي** مهدئاً :

ـــ ليكن ، ليكن ، لا داعي للخلاف ! الأستاذ الإمام هو أول من دعاني ولذا سأذهب عنده . وأشكرك كأخ .

والتفت **طوبال خوجة** قائلاً :

ـــ يا حضرة الأستاذ ، انتظر هنا قليلاً حتى أشعل الضوء . تعلم أن الطريق هنا صاعد ، والظلام أيضاً ...

وقال **سينان بك** في غضب :

ـــ حينما تعود ستأتي عندي مباشرة ! لا أعرف إلى أين ستذهب عنده مادام لا يوجد لديه مكان .

وهمس **إلهامي** وكأنه يحلم :

ـــ حينما أعود ...

ـــ أجل حينما تعود . ألا تعلم كم ستمكث فى مدينة ترافنيك ،

ـــ كم سأمكث ؟ ... من يعرف هذا ؟ ...

ونظر **سينان بك** إليه من عل ، وكان أطول من **إلهامي** .

ـــ لماذا ، هل استدعاك الوالي ؟

ـــ أجل ...

وسعل **سينان بك** واستدار في صمت وانصرف . وأخذ الآخرون أيضاً يتفرقون .

□ □ □

□□ وظهر ضوء ضعيف بأعلى في المنزل ، وهبط **طوبال خوجة** بشعلة موقدة في يده .

ــ تفضل يا أستاذ ! ماذا ، ماذا حدث لهم ؟ ...

فابتسم **إلهامي** في أسًى وقال :

ــ انصرفوا ، تفرقوا ...

ــ هذا أفضل حتى نتحدث فى هدوء .

ولما دخلوا المنزل بدأ **طوبال خوجة** يبدي أعذاره بقوله :

ــ معذرة يا أستاذ ، فمنزلي ... كيف أقول لك .. فقير قليلاً ، ولكنني أعلم أنك لست حساساً .. أنا بمفردي في الدار و ...

واستطاع **إلهامي** الأن فحسب أن يرى بشكل أفضل **طوبال خوجة** وهو يرتدي جبة قصيرة بالية ، فهو مشرق الوجه أزرق العينين ، له لحية قصيرة ضاربة إلى الصفرة وابتسامة لا تغادر وجهه وتشع منهءكله براءة الأطفال ، ولكنه طلق اللسان . ويجد على الدوام مناسبة للكلام .

ــ قسماً بدينك يا أستاذ أن تخلع ملابسك ، اجلس براحتك وكأنك في بيتك . سأعد الآن طعام العشاء لنا . ولكن لا أعلم ، ماذا تُفَضِّل ؟

ــ أود أن أرتوي بالماء .

ــ سأحضر الماء حالاً . كان عندي شراب العرعر ولكنني استهلكته . سأعد ثانية هذا الشراب .

وأمال **إلهامي** الإناء لكي يشرب ، وأخذ **طوبال خوجة** يحصي ماعنده قائلاً :

ــ عندي يا أستاذ جبن وبيض ولبن مخضوض وفطيرة بالقرع ، ويمكن ذبح دجاجة ، ولكن لابد من الانتظار قليلاً و ...

ــ ولكن بالله يا **عمر أفندي** ، إنني لم أحضر للضيافة . أحضر ما وهبه الله العزيز ! اكسر بيضتين أو ثلاث مع قليل من اللبن والحمد لله !

ــ إيه ، لو كنت أعلم أنك ستحضر لتصرفت تصرفاً آخر .

وبينما كان **طوبال خوجة** مشغولاً بإعداد العشاء وهو يتحرك حول الموقد الموضوع فى الجزء الأمامي من الدار الخالية من الأرضية ، التي تتألف من حجرتين صغيرتين تطلان على الزقاق ، تملّك النعاسُ **إلهامي** . وبرزت أمام عينيه أحداث اليوم والأمس . وغداً إن شاء الله سيذهب إلى ترافنيك . وأحس بقشعريرة عند تفكيره فى ذلك . وأمسك ثانية بالإناء وشرب . واستطرد **طوبال خوجة** في حديثه بعد أن كان قد صمت لفترة قصيرة . وعلاوة على ذلك مسح دموعه لأن الدخان لسع عينيه .

ــ أنا يا أستاذ أصبحت « أرملا » منذ سنتين ، ولي بنتان متزوجتان ، وهما بعيدتان عن هنا . إحداهما تعيش بالقرب من دير فينتا ، والثانية تعيش في بلدة أكثر بعداً عند مدينة فيشيجراد . إن الأمر ليس بيسير عليّ ولكن يجب على المرء أن يصبر . وقد كانت زوجتي الشيباء ــ رحمة الله عليها ــ صديقة حقيقية ، أدخلها الله الجنة .

وتنهد **طوبال خوجة** .

ــ وكيف حالك هنا ، هل أنت في بلدة فيتز منذ فترة طويلة ؟

ــ كيف لا يا أستاذ ، إنني هنا منذ ثلاثين عاما . كيف أقول لك ، ليس الأمر سيئاً . والناس كمثلهم فى كل مكان وأراعي ألا أرتكب خطأ في أي شيء وأن أتكلم بقدر ما أعرفَ وأعلِّم الصبيان وأقوم بصيانة المسجد والحمد لله ... فليرعني الله العزيز ، والناس كما يشاءون . ومن المؤكد أن هذه الحال عمرها قصير ولذا فإنني لا أتنازع على أي شيء ...

ومر **إلهامي** ببصره في الحجرة . سجادتان من الخرق مفروشتان على الأرض ، وكنبة صغيرة عليها وسائد محشوة بالقش ، وصندوق مطلي بالأخضر وعليه حاشية صغيرة رقيقة ، ووسائد ولحاف وبعض الكتب على حافة النافذة .

واستطرد **طوبال خوجة** قائلاً :

ــ لا تعلم مقدار سروري لأنك ضيفي ! وأراد **سينان أغا** أن تذهب عنده ، وأنت قلت إنك ستأتي عندي ! يا لَسَعَادتي . حقيقة أنك كنت ستشعر لديه بأن الحال أفضل

مائة مرة لا فحسب في المنزل بل وفيما يتعلق بالفراش .. كل شيء موجود لديه ، كما في منزل الوالي . ولا يوجد مكان أكثر راحة من منزله . وقد رأيت أنه متضايق ، ولكن الله ـــ جل شأنه ـــ أراد أن يسعدني . ومنذ أن وجهت اللوم إلى **سينان بك** في إحدى السنوات وهو غاضب مني على الدوام ولا يمكنه أن ينسى أو أن يسامح ...

ـــ يسامح في أي شيء ؟

ـــ ولكني يا أستاذ كنت مضطراً ! فقد حدثت ثقوب بسقف « الكتّاب » ، ويبدو أنه حدثت انهيارات بالجدران أيضاً . وقلت له انه ينبغي إصلاح مبنى « الكتّاب » من أساسه أو تشييد « كتاب » جديد . وقلت له : من سيقوم بذلك إذا لم تقم به أنت ؟ ورمقني بعينيه وقال : ولماذا أنا بالذات ؟ فقلت : لأنك تملك الكثير ، وحتى يبقى خير بعدك . فقال : سيبقى « **أنس** » فليقم هو بصنع الخير . و**أنس** هو ابنه . فقلت له ثانية : لا يمكن أن يكون الحال على هذا النحو . وقلت له إن رجلاً حسن المنظر مثله تحدث بمثل ما تحدث به وكان يختبيء وراء ابنه على الدوام . ثم قال له شيخ مسن عاقل بأن يمضي في إثر ابنه في الظلام ، عبر العارضة الخشبية الملقاة عبر الجدول الذي يجري عبر قريتهم هذه . وقال له الشيخ : ولكن ليمض الابن بالفانوس وراءك وأنت سِرْ أمامه . وهذا هو ما كان . فماذا حدث ؟ وما كاد يسيران على العارضة حتى سقط الوالد من عليها في الماء ، وانكسرت قدماه وصاح من الجدول قائلاً :

ـــ يا شيخ ، أهلكك الله ، إلى ماذا دفعتني ؟

فقال له الشيخ :

ـــ هكذا هى الحال يا سيد . كل إنسان لابد أن ينير أمامه وأن يحمل فانوسه . والعارضة الخشبية هى جسر الصراط ، والفانوس هو أعماللك الطيبة . وإذا لم تكن لديك أعمال طيبة فمصيرك معروف وهو الذهاب إلى جهنم . ولا فائدة إذا كان الشخص الموجود وراءك يحمل فانوسه وله بصره حتى ولو كان ابنك ... وهكذا منذ ذلك الحين و**سينان بك** لا يمكنه أن ينظر إلىّ بعينيه . وقد سمعته ...

ـــ أجل ، هذا هو الحال يا **عمر أفندي** ، هكذا بالضبط ! وكل إنسان مسئول عن نفسه . وكل إنسان مع فانوسه !

ـ وأنا أيضاً أقول ذلك ... ها هو البيض وها هو اللبن المخضوض ، وها هى الذرة . لو كنت أعرف بمجيئك لكنت على الأقل أعددت لنا فطيرة . ولكن هكذا هو الحال مادامت لا توجد بالمنزل سيدة ..

ـ ليكن ، ليكن ، نحمد الله على الذرة أيضاً . لا ينبغي أن يكون المرء بطراً .

ـ أجل يا أستاذ . وأقول لك الحق ، لقد أردت أن أتزوج ثانية لأنه ليس من السهل أن يظل الإنسان وحيداً و ... ولكن الأكثر صعوبة أن تجد زوجة صالحة . وفي أحد الأوقات قبيل رمضان كنت في جلسة عند الأستاذ المدرس في ترافنيك . ويحدث أن أذهب إليه في بعض الأحيان وأن أقوم بزيارته لأن أمثال هذا الرجل قليلون . وهو والله يرعاني أيضاً ويحبني ... وامتلأت الحجرة بالناس من الشيوخ والبكوات على الأكثر . وتحدث أحدهم عن الزواج وقلت إنني أنا أيضاً أريد الزواج . ولما قلت ذلك هاجمني أحد الأشخاص قائلاً : ألا تخجل وأنت متقدم في السن بهذا الشكل ، هل أنت مهتم بذلك . وهكذا هاجمني وكأنني والله أشعلت النيران في ترافنيك ! وقلت : انتظر يا أنت ! لو كان في الأمر سر ماسألتك ! ولماذا تتظاهر هنا بأنك عالم وولي !

وما أن قلت ذلك حتى انفجرت الحجرة كلها فى الضحك وأطرق أستاذي المدرس ورأيت أنه هو أيضاً يضحك . وفيما بعد أحسست بالخجل لأنني قلت هذا أمامه ...

وأطرق **إلهامي** أيضاً وابتسم ، فقد شعر بالبهجة بسبب ما أبداه **طوبال خوجة** من خفة وصدق رغم أن المرارة كانت ساكنة في قلب **إلهامي** .

ـ طوبى لك يا **طوبال خوجة** !

ولوح بيده وابتسم ثانية .

ـ هذا هو طبعي يا أستاذ ، أقول ما أفكر فيه . وفي كثير من الأحوال أصيب نفسي بالألم ، كما حدث مع **سينان بك** .

وقضينا الوقت في الحديث حتى موعد صلاة العشاء ، وكان **إلهامي** في الغالب صامتاً مستمعاً بينما **طوبال خوجة** يتحدث وينتقل من موضوع إلى آخر ولكنه كان يحكي بشكل مؤثر وحكايات كثيرة بحيث إن الاستماع إليه يعد أمراً مبهجاً . ونسى **إلهامي** للحظة كل شيء وقد سحره **طوبال خوجة** بقصصه إلى حد كبير وكان **إلهامي** يشعر بأن روحه

وجسده يستجمان .

وبينما كان **طوبال خوجة** يسكب القهوة عبر عن ضيقه بقوله :

ــ يبدو أن القهوة فاتحة اللون . حينما لا توجد عندي محمصة للبن ، أعطي البن للجيران لكي يحمصوه فلا يحمصوه أبداً كما ينبغي ... ولكن يا أستاذ ، يبدو أنك لا تدخن ؟

ــ لا ، لا أدخن .

ــ وأنا حاولت الامتناع عنه ولكني لم أفلح أبداً . أعلم أن التدخين مكروه ومع ذلك ... ليت هذه تكون هى نقيصتي الوحيدة .

وأخذ أحد الأشخاص يغني وهو يمر أسفل المنزل . وهمس **طوبال خوجة** لنفسه أكثر :

ــ إنه ذاهب إلى موعد غرامي ، طوبى له !

ومط رقبته وأطل عبر النافذة لكي يرى من يغني ، وتنهد في حزن قائلاً :

ــ إنه **سالكان** ، ومن سيكون غيره !

وسعل **إلهامي** لكي يخفي ضحكة واستطرد **طوبال خوجة** قائلاً :

ــ يسألونني في بعض الأحيان كيف يمكنني أن أكون على الدوام معتدل المزاج ، وهل أعرف ما هو الغضب لأنهم يقولون إنهم ما رأوني أبداً غاضباً . وسألني أيضاً الأستاذ المدرس عن هذا الأمر في إحدى المرات . فقلت له عندئذ : ــ يا أستاذ ما أسهل تعكير المياه الضحلة وإغضاب الإنسان الأحمق ! ولذا فأنا لا أستسلم . وبسبب كلامي هذا استلقى الأستاذ على ظهره من الضحك ، وقد أعجبته هذا أيما إعجاب . وهذا هو الحال مع صاحبي **سينان بك** . إنه يفعل كل شيء لكي يوقعني في ورطة فأنسى نفسي وأتلفظ بشيء لا يصح ولا يليق بالإنسان العاقل . وأنا أتظاهر دوماً بعدم المهارة إلى أن يصيبه السأم فيدع الأمر . وفي الوقت الحالي ، وفي بعض الأحيان فحسب كما حدث الليلة ، يلدغ كذباب الحيوانات .

ــ يا **طوبال** ، لا ينبغي أن ينسى المرء نفسه . وينبغي أن يعتدل الإنسان في كل شيء .

ـــ طبعاً . والبعض هنا في القرى أخذوا ثانية يخمرون شراب البرقوق ويصنعون العرق ، وهاجمت ذلك في الخطب وفي الجلسات وإذ برجل يدعي الذكاء يقول في الجلسة : حسن أيها الشيخ مادام من الممكن أن نأكل البرقوق فلماذا لا يمكن صنع العرق ؟ إنه أيضاً من البرقوق ... أتعلم ماذا قلت له رداً على ذلك ؟ ..

ورفع **إلهامي** رأسه وانتظر .

ـــ وسألته عما إذا كان يملك بقرة .. فقال : عندي بقرتان . قلت : حسناً .. ثم سألته : وماذا تصنع باللبن ؟ فأجاب : أصنع من بعضه جبناً ولبناً مخضوضاً من بعضه . وسألته : هل تشرب اللبن ؟ فقال مجيباً : طبعاً أشربه . وسألته ثانية : وهل أكلت في أي حين من الأحيان روث البقر ؟ فجحظت عيناه وسكت كل الموجودين بالحجرة وانتظروا ليروا ماذا سيحدث . وأعدت السؤال عليه :ـــ قل هل أكلت في أيِّ حين من الأحيان روث البقر ؟ وارتجف وقال : ياشيخ لاتسألني عن هذا ! فقلت معانداً : إنني أسألك ، وأنت رجل طيب ، فهل أكلت في حين من الأحيان روث البقر ؟ لاننا لو تصرفنا هكذا وفقاً لما تدعي الذكاء فيه فإن الروث من البقرة أيضاً مثله مثل اللبن ، كما أن العرق مصنوع من البرقوق ، أليس كذلك ؟

واختنق الناس بالضحك ، أما هو فقد أطرق برأسه وأخذ ينظر أمامه و لم يخمر عصير البرقوق سنة أو سنتين ولكن كما سمعت فقد عاد لذلك .. ولابد أن أرد له عقله ثانية على نحو ما .

وهكذا ظل **طوبال خوجه** يتحدث إلى ما قبل صلاة العشاء ثم نهضا وأخذا وضوءهما واتجها إلى المسجد ، وفي الطريق انضم آخرون إليهما ، وكانوا يسيرون في صمت : هما الاثنان في المقدمة ، والباقون وراءهما والقمر يسطع والرؤية واضحة كما في النهار وحينما وصلا إلى المسجد سأل **طوبال خوجه** في صوت خافت :

ـــ يا أستاذ ، أتريد أن تؤم الصلاة ؟

ـــ بكل سرور ، شكراً لك .

وفي هذه المرة تملك الصمت أفراد الجماعة الذين تعودوا على **طوبال خوجه** فلا أحد يسعل أو يتثاءب .. ولما بدأ **إلهامي** يتلو القرآن بدا وكأن أحداً لايتنفس وكأن صوته

يصل من كوب بلّورية ويمس شغاف نفسه .

وأحاطوا به بعد الصلاة قائلين :

ــ يا حضرة الشيخ ، ألا تريد أن تحضر عندنا في شهر رمضان وأن تلقي دروس الوعظ وتؤم الصلاة .

وقال آخرون :

ــ والله لو كانت بك رغبة فلن تندم .

وقال **إلهامي** مدافعاً عن نفسه :

ــ أطيعوا أنتم شيخكم **طوبال خوجه** ، ولستم في حاجة لأفضل منه

ــ هذا صحيح ، ولكن ...

□ □ □

□□ وخرج **طوبال خوجه** من المسجد بين آخر الخارجين منه . وخرج معه **سينان بك** الذي كان يقول له شيئا بصوت خافت وهو يهدد باستمرار بسبابته .

واقترب **طوبال خوجه** من **إلهامي** الذي كان الناس يتجمعون حوله حتى الآن قائلاً :

ـــ هل سنذهب يا أستاذ ؟

ـــ يمكننا ..

ومن العجيب أن **طوبال خوجه** صمت طوال الطريق . وإذا تحدث بشيء فمن الواضح أنه يفعل ذلك رغماً عنه دون خفته وبهجته المألوفتين . وأحس **إلهامي** بذلك فسأله بقوله :

ـــ ماذا بك يا **طوبال خوجه** ؟ تملكك الصمت . هل بك شيء ؟

وتنهد وهمس بصوت باكٍ تقريباً قائلاً :

ـــ سأقول لك يا أستاذ .. حينما نصل إلى المنزل .

ومست **إلهامي** ظلال من الحزن ، وأحس أنه المتسبب في ذلك .

ولما وصلا إلى المنزل خلع **إلهامي** ملابسه في صمت وجلس وقال :

ـــ هيه يا **طوبال خوجه** ، فلأسمع ، ما الأمر ؟

ووقف **طوبال** بالقرب من الباب وأطرق عينيه ويبدو أنه يبكي .

ـــ يا **طوبال خوجه** بالله عليك ، لسنا أطفالاً ، ماذا في الأمر ، اسمعني !

وشهق **طوبال خوجه** واقترب من **إلهامي** وعانق ركبتيه وأخذ ينتحب .

ـــ ولكن يا **طوبال خوجه** !

وفصل يديه بمشقة وأخذ يهدىء من روعه . وكانت يداه عجوزتين وجلدهما مغضن وتمتلئان بالبقع الصفراء .

ـــ هيا ، اهدأ ، وقل لي ما الأمر . انهض واجلس !

نهض وجلس وظل لفترة من الوقت يشهق إلى أن همس بشكل متقطع قائلاً

ــ بقول **سينان بك** أن .. الوالي .. يستدعيك .

ــ وماذا ؟

ــ يقول **سينان بك** : ــ ودعه .. أهذا يحدث معك ؟ عاقبه الله ! ثم تذكرت ما قاله لي عنك مؤخراً الأستاذ المدرس .

ــ ماذا قال لك ؟

ــ يقول إنه ظهرت لك قصيدة ، ويقول إنها عنيفة ذكر لي هذا ، هكذا في الطريق ولم أسأله عن هذا بعد ذلك ، وظننت أنها قصيدة ككل القصائد عن الأخلاق والدين بالطبع . والآن بعد كلام **سينان بك** ربطت كل هذا ببعضه . قد يكون الأمر مخالفاً لذلك ولكن الشك والخوف سيطرا عليّ .. **وسينان بك** هو أكثر من أرهبني . وهو ناقل الأخبار السيئة ، جزاه الله بما يستحق .

ــ تقول إنها قصيدة ...

ــ هكذا يقول الأستاذ المدرس .

ــ هيه يا صاحبي **طوبال خوجه** !

ــ وانتعش **طوبال خوجه** قائلاً :

ــ هذا هو ما حدث ، أليس كذلك ؟

ــ أجل ، أجل . وليت القصيدة وصلت إلى اسطنبول لا إلى ترافنيك فحسب ! لقد أحسنت القصيدة صنعاً .

ونهض **طوبال خوجه** على قدميه وأخذ ينظر إلى **إلهامي** مشدوهاً . وتغير وجه **إلهامي** وكأن جسده كله يشتعل حرارة .

ــ ماذا سيحدث بالله عليك يا أستاذ ؟

فقال **إلهامي** في هدوء :

ــ فليحدث ما ينبغي أن يحدث ! في رعاية الله .

وأصبح ثانية هو ذلك الشخص السابق : متمالكا لنفسه ولكنه حزين .

ــ وبماذا تكون هذه القصيدة يا حضرة الأستاذ عنيفه ؟

ـــ كل حقيقة تقال في غير وقتها تعد عنيفة .. الجميع يرونها ويعرفونها ولكنهم يصمتون عنها . وحينما يبرز أحد الأشخاص ويقولها يتملكهم الرعب ويصيحون : إنها عنيفة ولابد أن يقولها أحد الأشخاص ! أترى ماذا يفعلون يا **طوبال خوجه** ؟ لم يبدأ هذا منذ الأمس . لا يوجد شيء لا يسحقنا ولا يطهرنا .. الجهل والحروب والظلم والرشوة ، وكل ما تشاء . الآن جاء **الجلالي** لكي يهدىء الأمور ويعالجها . بماذا ؟ بالدماء والظلم ! ولو كنت أملك مائة روح ما حزنت عليها !

وصمت الإثنان لفترة من الوقت إلى أن تكلم **طوبال خوجه** وكان يتحدث بلين وبطريقة مواسية :

ـــ من يعلم ، ربما ليس الأمر على النحو الذي يبدو به . ربما تلقى بعون الله ، النجاة .

ـــ ليكن يا **طوبال خوجه** . لقد ابيض شعري وهاأنذا متجه إلى ترافنيك . وإذا كان كأس الموت ينتظرني فأنا على استعداد . وأرجوك يا **طوبال خوجه** ألا تحدثني عن هذا الأمر بعد ذلك . قل لي شيئاً مبهجاً ، شيئاً مماثلاً كذلك الذي كنت تحكيه لي قبل صلاة العشاء .

ـــ ليتني كنت أستطيع ..

ـــ إذن أرجوك أن تتركني وحدي . أريد أن أقرأ القرآن . وسأتحرك في الصباح الباكر ، إن شاء الله ، قبيل الفجر .

وخرج **طوبال خوجه** على أطراف أصابعه وتوقف وأراد أن يقول شيئاً ، ولكن .. وكأنه رجع عن رأيه وأغلق الباب في صمت .

□ □ □

□ □ وقضى **إلهامي** الليل راكعاً يقرأ القرآن بصوت شبه هامس . وسيطر عليه ثانية ذلك الإحساس الرفيع حينما حلقت روحه فوق كل ما هو أرضي ، وانفتحت روحه بسبب الوجد الذي يخترق نفسه .

وفي أحد أوقات الليل سُمع صوتُ خبط بالمنزل . وكان **طوبال خوجه** قد نهض وأخذ يخبز فطيرة في الفرن ، وقد انبلج الفجر . وتوقف **إلهامي** عن القراءة ونهض ونوى صلاة الفجر . وبعد الصلاة ارتدى ملابسه ووقف عند الباب وقال :

ــ صباح الخير يا **طوبال خوجه** .

وانتفض **طوبال خوجه** وقال :

ــ آه ، أهو أنت ! اللهم ارض عنا ! يا شيخ .. هل أمكنك أن تنام ؟ هاهي الفطيرة قد أعدت وسيتم الآن إعداد القهوة .

ــ شكراً لك ولكني صائم .

ــ بالله عليك ، إنك لم تأكل شيئاً !

ــ كيف لم آكل ، ألم أتناول طعام الإفطار ؟ وأريد ــ بعون الله ــ أن أتحرك .

ــ ولكن كيف سترحل ، إنك لم تأخذ شيئاً .. ساعد لك شيئاً ــ على الأقل ــ واحمله معك ! آه ، بالله عليك .

ــ لا يلزم يا **طوبال خوجه** ! ربما سأجد شيئاً حتى موعد طعام الإفطار ، إلا إذا ...

و لم يكمل عبارته . كان قد عاد إلى الارض ، والنهار الذي يبزغ يحمل معه أعباءه وهمومه ، ورجع **إلهامي** إنساناً دنيوياً .

ــ كان لابد وأن تطرق عليّ لكي أعد لك شيئاً تأكله ! إلى أين ستذهب هكذا بالله عليك ! ... آه يا أخي ، يا أخي ليت كل هذا كان حلماً ، لو لم ..

هكذا تحدث **طوبال خوجة** بصوت باكٍ ، وكان يرتدي سروالاً طويلاً بدون العمامة

بينما لحيته بشعرها النادر ترتجف من الانفعال . وبدا وكأنه سينفجر في البكاء في أية لحظة .

ـــ لا تحزن يا **طوبال خوجه** ، ولكن أردت أن أسألك شيئاً .

ـــ ؟؟؟

ـــ أين جبتك ؟

ـــ الجبة ؟ !

ـــ أجل الجبة . أحضرها !

ووقف **طوبال خوجه** في ذهول .

ـــ هيا ، أحضر لي جبتك .

ودخل الحجرة وعاد ومعه الجبة وأخذها منه **إلهامي** وقال :

ـــ يا**طوبال خوجه** ، جبتي أفضل من جبتك وجديدة عنها . خذها لأنك إمام وأنت في حاجة إليها أكثر مني . إذا كانت طويلة عليك قَصِّرْها . وجبتك هذه يمكن أن تصلح لي .

وارتدى **إلهامي** الجبة في أثناء كلامه ، وكانت قصيرة عليه للغاية وتصل بالكاد إلى ركبتيه والأكمام قصيرة أيضاً تصل إلى ما تحت الكوعين . وعلاوة على ذلك بها الكثير من الإصلاحات والبطانة ظاهرة في بعض الأماكن .

ـــ خذ أنت جبتي ، إنها في الحجرة على الصندوق .

وهمس **طوبال خوجه** في تأثر :

ـــ يا حضرة الأستاذ ..

ـــ إذا كنت تريد أن ترضيني اليوم فاسمع كلامي . لقد كان يرتدي الجبة إمام ، فلتظل يرتديها إمام ! إن مكانها في المحراب . والله شاهد على أنني كنت أرتديها وقلبي نقي ونيتي ظاهرة فارتديها أنت أيضاً . والآن ، هيا نودع بعضنا دون بكاء .

وعانق **إلهامي طوبال خوجه** وأمسك به بشدة ثم تركه فجأة وانتعل حذاءه بأسرع ما يمكن ودون أن يرفع عينيه وأمسك بالحقيبة .

ـــ في رعاية الله ، وسامح ..

وقال **طوبال خوجه** متهتهاً وهو يسير في إثره :

ــ ولكن ، هل .. خذ .. على الأقل ..

وأجابه **إلهامي** دون أن يلتفت :

ــ ليكن ، شكراً لك ، دعه باقياً ..

ولما هبط إلى الطريق استدار ، وكان **طوبال خوجه** واقفاً ويده على فيه ينظر في إثره . ورفع يده وصاح بشيء ولكن **إلهامي** لم يتبين ما يقول . وهكذا في ضباب الصباح الخفيف تهيأ له وكأنه غير حقيقي .

□ □ □

□ □ وعندما ابتعد عن بلدة فيتز توقف **إلهامي** والتفت ثانية . وتطل من بين الرؤوس الخضراء للأشجار سقوف المنازل ، وفي وسطها كالدجاجة وسط الكتاكيت يرتفع المسجد بمئذنته الخشبية الأنبوبية الشكل . ويقف المسجد هنا وكأنه يراقب ويصيخ السمع لكل ما يحدث في فيتز ويعرف من ذا الذي سيأتي لغزوها ومن أية ناحية .

وبرز أمام عينيه ثانية **طوبال خوجه** وسرى دفء لطيف عبر شرايينه . لقد التقى به لأول مرة ، وستكون آخر مرة ، ولكنه دخل قلبه من أول رؤية وسكن هنا وكأنه يعرفه علي الدوام . وأطرق **إلهامي** ببصره وابتسم وكان شكلها سيئاً جبة **طوبال خوجه** الضيقة المحكمة عليه . وماذا سيظن **الجلالي** حينما يظهر له بهذا الشكل ، من المؤكد أنه سيتساءل : أهذا هو **إلهامي** ؟

وراء التل كانت السماء تبزغ في شكل سهام أرجوانية مديدة . وفجأة تلألأ نهر « لاشفا » الذي كان حتى ذلك الحين قاتماً وساكناً كالأرض . والنهر يفعمه على الدوام بالإحساس باستمرارية الفناء والدوام . إنه نفس النهر دائماً ، وهو دوماً متغير ومتجدد ، مثل الناس والأشجار والطيور ، وككل ما يعيش وما يموت . وفي هذا النقاء الصباحي والسكون شعر بأنه خفيف ومستريح البال وتهيأ له أنه سيطير ، وفي تراخ طارت بعض الغربان المذعورة المتسللة إلى شجرة الصفصاف بجانب النهر وابتعدت وهى تصيح ورافقها ببصره إلى أن اختفت تماماً .

ولم يلتق في الطريق بأحد تقريباً . وفي أحد الأماكن عند قرية دوتسه التقى باثنين أو ثلاثة من المارة والفرسان الذين تبادل التحية معهم في أثناء مروره بهم .

وكان قد عزم علي التوقف عند قرية دوتسه وأن يقوم بزيارة قبر الشيخ **ابراهيم ديد يتوفو** الذي يرقد هنا منذ الفتح ، ثم بزيارة ضريح **ميليا** . وما أن أراد أن يمر على نهر لاشفا لكي يغير وضوءه حتى توقف ، فقد لاحت وراء المنحنى الموجود بالطريق خلال

سحابة من الغبار مجموعة من الفرسان تقترب منه هرولة . والتصق **إلهامي** بجانب الطريق متنحياً ، ولكنهم توقفوا أمامه بالضبط ودفعوه إلى حافة الطريق . وكانت مجموعة منتقاة من الأفراد المدججين بالسلاح ويتدثرون بعباءات حمراء واسعة ويضعون عمامات بيضاء على رؤوسهم ، وخيولهم تتقد نشاطاً وتتمتع بالصحة وعيونها ضخمة ونارية ، وهكذا تدخل الخيول وراكبوها الرعب في قلوب الناس . وكانت هذه كتيبة من العسكر ، وهم أفراد الحاشية المسلحة **للجلالي** الذين يقومون بمهمة مراقبة الطرق والمضايق حتى لا يتمكن أحد من التجول في البلاد وفقاً لمشيئته بدون تصريح السفر المرسوم بخاتم **الوالي** .

وصوب أصبعه نحو **إلهامي** أكثر هؤلاء العسكر تميزاً من حيث الملبس والسلاح بينما حصانه يصهل باستمرار وهو بعض الحكمة وينثر الزبد حوله وقال :

ـــ التصريح .

وأخرج **إلهامي** خطاب الوالي الذي يتوجه به إلى ترافنيك . وأخذ الجندي يقرأ الخطاب .

ـــ يرسلونك إلى الوالي ؟

ـــ أجل ، يرسلونني .

ـــ بمفردك ؟

ـــ بمفردي ؟

ـــ لماذا ؟

فهز كتفيه قائلاً :

ـــ من المؤكد أنهم سيقولون لي .

ونظر إليه الجندي في حيرة . ولمست رأس حصانه رأس **إلهامي** تقريباً لأنه دفعه تماماً إلى حافة الطريق . وشعر **إلهامي** بالأنفاس الساخنة للجواد على وجنته .

ـــ وماذا في حقيبتك ؟

ـــ ملابسي .

ـــ دعني أرى

وأنزل الحقيبة المصنوعة من جلد الماعز وأخرج سروالاً وقميصاً نظيفين ، ثم ملعقة خشبية ومنشفة وشيئاً آخر ملفوفاً في مئزر .

ـــ وهذا ؟ وما هذا ؟

وحل **إلهامي** المئزر في صمت .

ـــ ما هذا ؟

وهمس بصوت خافت :

ـــ كفن ..

وأجفل الجندي قائلاً :

ـــ كفن ؟

ـــ أجل كفن .

وسقطت الكلمة كالجمرة في الماء ، وكأنها أصدرت دوياً وتزاحم الجميع حولها .

وبأسفل ، على العشب الناحل على حافة الطريق يسطع بياض الكفن القطني الملفوف في مئزر ، الكفن الخاص **بإلهامي** الذي تحرك به إلى ترافنيك .

ومط العسكر رقابهم وهم ينظرون حيناً إلى الكفن وحيناً آخر إلى **إلهامي** . وفي بعض الأحيان فحسب تنفخ الخيول وتضرب في نفاد صبر بحوافرها على الارض .

ـــ ماذا ستفعل بالكفن ؟ هل ربما تتعشم في أن تموت ؟

فقال **إلهامي** بهدوء :

ـــ ومن لا يتعشم في أن يموت ومن لا ينتظر الموت ؟ البعض ينسى ذلك ولكنه سيتذكر عند اللزوم . ولكن الخوف من أن يكون الوقت قد فات .

وسعل الجندي وضغط على سلاحه وقال :

ـــ ومن أنت وبماذا تشتغل ؟

ـــ إنني درويش .

ـــ درويش ، وتقول إنك لا تعرف سبب إرسالك واستدعائك إلى ترافنيك ؟

ـــ الشخص الذي يستدعيني هو أفضل من يعرف .

ومن أعلى ، من قرية فيتز ، ظهرت في تلك اللحظة مجموعة أخرى من الفرسان

بمضي على مهل وفي صمت وكأن شيئاً كئيباً يحوم فوقها . إنه واحد من كثير من أعيان البوسنة الذين تم حينذاك استدعاؤهم إلى ترافنيك ، وهو قادم مع حاشيته التي لم تكن أقل حزناً منه .

وتملك الاضطراب الجنود .

ـــ يا **محمد أغا** ، ها هم بعضهم .

ونظر هذا الشخص في الاتجاه الذي يأتي منه الفرسان ، وقبل أن يهموا بالتحرك قال **لإلهامي** مهدداً :

ـــ وأنت امض إلى ترافنيك مباشرة ! ولا تحد إلى أي مكان ، أتسمع !

ـــ إنني ذاهب إلى هناك .

ـــ وقدم نفسك لقصر الوالي .

وصدق **إلهامي** على كلامه بهزة من رأسه وأخذ يجمع الحاجيات ويحشرها في الحقيبة . وأدار العسكر الجياد واتجهوا لاستقبال القادمين .

وفي صمت اقتربوا من بعضهم البعض . وطوق القادمون العسكر الذين كانوا أكثر عدداً . وسُمع كيف أن الاثنين يتحدثان فيما بينهما عن شيء ، ولكن لم يكن من الممكن تبين كلامهما .

وسرعان ما افترقا وهرول العسكر كالإعصار صوب قرية فيتز وتحرك القادمون برفقة أحد الجنود متجهين إلى ترافينك . وحينما اقتربوا من **إلهامي** الذي كان لا يزال واقفاً على حافة الطريق مروا في صمت وكأنهم في جنازة . وكان الراكب في المقدمة رجلاً متوسط العمر ويبدو الثراء على ملابسه وعند مروره ألقى نظرة خاطفة شاردة على **إلهامي** ، وامتلأت عيناه باليأس والحزن مثلما يحدث عند أولئك الذين استسلموا مقدماً لمصيرهم السيىء . والرجل المتقدم عنه في السن ويركب من ناحيته اليسرى يقول له شيئاً في سرية وبصوت خافت وهو ينقل باستمرار يده ناحية قلبه وكأنه يقسم بينما هذا يستمع إليه في شرود . وفي بعض الأحيان فحسب يغمض عينيه ثم يرفع رأسه ببطء ويخفضها ويمر براحة يده على وجهه وكأنه يستيقظ .

وتملك قلب **إلهامي** الوجل . فقد أعاده إلى الواقع هذا اللقاء القصير مع الجنود ثم مع

أحد الأعيان وحاشيته . ولم يكن هذا اللقاء مماثلاً للقائه وحديثه في خان فراندوتشاك مع **حمزة أغا** الغاضب والأمين أيضاً ، أو مع **طوبال خوجه** الطيب الساذج ، أو حتى مع قطاع الطرق ، ومع رئيسهم ، الذين كانت — بالرغم من كل شيء — الإنسانية والشفقة متواجدة في نفوسهم . لا ، في هذه المرة كان الأمر مختلفاً . لقد كان هذا لقاء مع السلطة الباردة عديمة الإحساس مثل حد السيف الذي لا يبالي فيمن سيغمد وفي أي مكان .

وانفعل **إلهامي** وارتعش فأغمض عينيه وتأوّه بصوت مبحوح قائلاً :

— يارب لا تتركني ، ولا تسمح بأن يكونوا أقوى مني .

□ □ □

□ □ وبعد أول منحنى التقى مصادفة بفلاح مسيحي مسن يقف بجانب المياه التي تجري في مجرى خشبي كبير وينشغل بشيء في حصانه الذي أمسك بساقه الأمامية ولما لمح **إلهامي** ترك الحصان وألقى عليه التحية باحترام وهو يخلع طاقيته .

وسأله **إلهامي** في ألفة وهو يرد على تحيته بيده قائلاً :

ــ ماذا ، أيمكنني أن أساعد بأي شيء ؟

ــ حدوة الحصان مدلاة يا أستاذ ، ولا يمكنني أن أنزعها . أخشى أن يصاب بتشوه .

ــ سيصعب عليك أن تفعل ذلك بمفردك . سأساعدك ..

ــ شكرا لك .. لو أمسكت به قليلا إلى أن أنزع له الحدوة ..

وقال **إلهامي** في تأهب :

ــ سأفعل ، كيف لا ؟

واقترب من الجواد ورفع ساقه اليمنى التي تتدلى من حافرها حدوة بالية رقيقة .

ــ هل لديك أية كماشة ؟ أو سكين ؟

ــ وهذه هي المشكلة يا أستاذ ، فليست لدى كماشة ، ولدى سكين .

ــ هات السكين إذن . وَلْنَرَ هل ستساعد . سأمسك بساقه وأنت أدخل السكين تحت الحدوة ولكن على مهل .

وعانى الفلاح لفترة طويلة وهو يَجْتَهد أن يُدْخِلَ السكينَ تحت المسمار الملتوي الذي تتدلى منه الحدوة بينما كان **إلهامي** يهدىء الحصان .

وتأفف الفلاح وهو راكع على إحدى ركبتيه قائلاً :

ــ صعب .. لا تريد ..

ــ انتظر لكي أرى القدم أنا أيضاً . وأمسك به أنت قليلاً .

وكان **إلهامي** أسعد حظاً . وبمشقة أدخل السكين تحت المسمار الملتوي وعدله ونزع الحدوة .

ــ ها ، هاهى .

وتنهد الإثنان في ارتياح وانتفض الجواد ومط رقبته .

ــ شكرا لك يا أستاذ . منحك الله كل خير !

ــ آمين ومنحك أنت أيضا . والآن على مهل . وطبعا سر على قدميك .

ــ لن أذهب بعيدا ، المسافة قريبة بالنسبة لي ، كنت أريد أن أذهب بالقمح إلى الطاحونة وفي الطريق رأيت ...

وبينما كان يتحدث بلل الفلاح يده ونزع طاقيته ومسح بيده المبللة على جبهته ورأسه . ولم ير **إلهامي** إلا الآن فحسب كدمة دامية في حجم الأصبع تمتد من أعلى جبهته وتختفي تحت شعره الأشيب الخفيف .

ــ انظر ، ما هذا الذي بك ؟ لعل أحداً ضربك ؟

وهمس الفلاح بصوت أجش وهو يبلع ريقه في نحيب قائلاً :

ــ أجل .. ضربني .

ــ من ؟

ــ أولئك ..

وأشار الفلاح بعينيه إلى الطريق الذي دوى فيه صوت الفرسان .

ــ العسكر ؟

ــ أجل ..

ــ ولماذا بالله عليك ؟

ــ دون أي سبب يا أستاذ ، بدون أي سبب إذا كنت تصدقني . كنت عائدا من الطاحونة حينما هجموا عليّ وتملكهم الغضب . وبينما كنت أحتمي في الخندق أوقف أحدهم جواده وسب أبي وأمي ثم ضربني على رأسي بالسوط ولو لم أنحن لفقأ عيني ..

وتأوه **إلهامي** قائلاً :

ــ يا لكربنا وحسرتنا ! ماذا يفعلون بنا ..؟ ألا يعرف هؤلاء الأشقياء أنه لا ينبغي

أن يوجه أي ظلم وعسف ضد نبتة أو حيوان فضلا عن الإنسان.الويل لهم . الويل لهم !

وبينما كان **إلهامي** يتكلم أخرج منديلا من سرواله وبلله بالماء واقترب من الفلاح .

ــ انتظر يا أخي لكي أربط لك هذا ، وستشعر بالراحة . إحْن رأسك يا أخي .

وأطاعه الفلاح في صمت وتنهد في نحيب قائلاً :

ــ شكرا لك يا أستاذ . منحك الله كل خير ولا تلمني إذا سألتك من أنت ؟

ــ من أنا ؟ غريب .. بائس .. درويش ..

ــ طوبى لك ما دمت بهذه الأخلاق ! وإلى أين أنت ذاهب إذا كان من الممكن أن أعرف ؟

ــ إلى ترافنيك .

وانتفض الفلاح قائلاً :

ــ إلى ترافنيك ؟ أتمنى ألا يكون بسبب شر أو مصيبة ؟

واعتصر شيء قلب **إلهامي** ، ولكنه تمالك نفسه في لحظة وهمس لنفسه أكثر :

ــ في رعاية الله .. لا يمكن تغيير المكتوب .

ثم التفت إلى الفلاح وربت على كتفه وقال بصوت خافت :

ــ هيا يا أخي ، ليكن الله في عونك وفي عوننا جميعا .

ــ وفي عونك يا أستاذي العزيز . ولتعلم أنني سأصلي لله من أجلك ، وفقا لتعاليم ديننا .

ــ الله واحد ، الله واحد !

هكذا قال **إلهامي** وتحرك .

وسرعان ما انحرف من على الطريق وهبط إلى نهر لاشفا وأخذ يتوضأ . وبينما كان يخرج المنشفة ويجفف نفسه هبط عصفور مزركش بساقيه الطويلتين النحيفتين على حجر في وسط الماء وأخذ يغرد بصوته الصغير ، وذيله الطويل المزركش يهتز بلا انقطاع وبدا وكأنه ينقر على الحجر . وعندئذ هبط عصفور مماثل وأخذا يغردان معا ثم طارا .

ــ سبحان الله ، كم يشعران بالسعادة !

هكذا رق قلب **إلهامي** وهو يفكر في حزن فيما إذا كان سيقف بعد ذلك في أي

حين من الأحيان على شاطيء النهر ويسمع خرير المياه ويرى سطوع الشمس أو يستريح في سكون أشجار الصفصاف العتيقة التي تميل فوق النهر بينما جذورها المتآكلة تنعكس على المياه .

وجلس القرفصاء تحت شجرة الصفصاف لكي يلتقط أنفاسه لأنه تعب منذ الصباح . ولمح صورته على المياه الساكنة تحت شجرة الصفصاف . وتهيأ له أنه بعيد وغريب فأخذ يفكر قائلاً :

ـــ هكذا في أحد الأماكن سيستكن جسدي . من يعلم في أي مكان ؟ .. وستحرر روحي وتنفصل عن جسدي وكأنها تنفصل عن الثوب الذي كانت ترتديه ثم ستختفي جميع ألوان الضيق والهموم التي ترهقني وهل سأكون عندئذ هادئا ، وهل سأجد ذلك الذي كنت أعتقد فيه اعتقادا راسخا ، وذلك الذي كنت أبحث عنه بإصرار طوال حياتي . ياربي ، ارحمني وحقق آمالي واغفر لي ذنوبي واستر عيوبي !..

وسقطت في المياه الساكنة ورقة انقطعت من شجرة الصفصاف وارتعشت المرآة المائية وكثرت بها التجاعيد واستطالت الصورة وتجزأت وتلاشت .

ـــ هكذا سيكون الحال معي . سيختفي ذلك الشخص الدنيوي المسكين المدعو **إلهامي** ، هذا الشخص الذي يمشي اليوم ويضع على ظهره أحماله الدنيوية ويهتم بالرزق ويفكر فيما إذا كانت شجرة الجوز الموجودة بالحديقة ستثمر هذا العام أم لا ، ويفكر فيما سيفعل به **الجلالي** وهو شخص أكثر منه بؤسا .. ليت الحياة كلها تقتصر على هذا الأمر ولو لم يكن هناك شيء أكثر علوا وسموا من ذلك عندئذ .

و لم يكمل فكرته ودفعه التعب وخرير المياه الرتيب إلى النوم واستغرق في النوم وهو هكذا يجلس القرفصاء ويستند بظهره على شجرة الصفصاف . وفي المنام تهيأ له أنه مشدود الوثاق وملتف بشيء ما فلا يستطيع حراكا .

وفكر في خوف :

ـــ إنني .. في قبري .. قتلني **الجلالي** وهاأنذا الآن في الضريح والدعامات الموجودة فوقي هى التي تشدني ولا تسمح لي بالحركة أو بالتمدد .

□ □ □

□ □ ـ يا **عبد الوهاب بن حواء** ، أتسمعنا ؟

هكذا سمع صوتا قادما من أحد الأماكن ومن المسافة البعيدة ومن العمق وكأنه صادر من تحت الأرض .

وأصاخ السمع ولكنه لم يُجِزْ جوابا .

ـ يا **عبد الوهاب بن حواء** ، أجب !

وفكر :

ـ أنهما السائلان !

وتسمر ، ثم تذكر عندئذ كلمات الدرس التي تقول : إذا جاءك الملكان القريبان من الله جل شأنه ، اللذان يحملان الخبر السعيد والتذكير من الله الرحيم ، لكي يسألاك عن ربك ونبيك وعن دينك وإيمانك وقبلتك فلا تخف ولا تحزن أمامهما بل أجب عليهما بوضوح وجلاء .

وحينما نادوا عليه للمرة الثالثة باسمه وباسم أمه رد عليهم قائلاً :

ـ أنا ذلك الشخص الذي تنادون عليه ؟ أنا **عبد الوهاب بن حواء** .

ـ وهل تعرف من نحن ؟

ـ أعرف .

ـ قل ما دمت تعرف .

ـ أنتما السائلان : ناكر ونكير .

ـ وهل تعرف سبب حضورنا ؟

ـ لكي تسألاني .

ـ قل إذن ، من هو ربك ؟

ـ ربي هو الله ـ جل شأنه ـ .

ـــ ومن هو نبيك ؟

ـــ نبيي هو **محمد** ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ

ـــ وما دينك ؟

ـــ ديني هو الإسلام .

كان يجيب في خشوع وجلاء إلى أن سمع كلمات لم يتوقعها :

ـــ قل ما بعد ذلك .

ـــ ماذا ينبغي أن أقول أيضا ؟

ـــ كيف كنت تعيش وماذا صنعت في حياتك !

وتسمر في مكانه ولم يعرف من أين بدأ .

ـــ هيا ، قل !

وتهته في اضطراب قائلاً :

ـــ أليس هذا معروفا ؟

ـــ كل شيء معروف ولكننا نريد أن نسمع منك .

ـــ لا أعرف من أين أبدأ .

ـــ منذ أن عرفت نفسك .

ووصل إلي سمع **إلهامي** ثغاء الخراف فتذكر عندئذ طفولته وأخذ يتحدث قائلاً :

ـــ عندما كنت صغيرا كنت أحب الخراف أكثر من أي شيء ، وحينما يأتي عيد الأضحى كنت دوما أبكي من أجل الأضحيات وكنت أحمل لها الماء وأعطيها النخالة المملحة إلى أن يتم اقتيادها ، وعندئذ ...

ـــ دعك من هذا وتحدث عن الفترة منذ أن أصبحت شاباً وإماماً .

وحينئذ أخذ يحكي عن مدرسة **قراخوجه** الذي تعلم على يديه مادحاً إياه على الدوام وراجيا من الله أن يسعده بإدخاله الجنة ، ثم حكى عن فترة انضمامه إلى الدراويش وعن النشوة التي سيطرت عليه آنذاك ، وعن سعيه إلى أن يسبر غور الأشياء التي كانت تفتنه ، وبالرغم من ذلك ظلت محجوبة أو متكهنة فحسب . وتحدث حديثاً جميلاً طليقاً بحيث انه هو شخصيا تعجب من أين تتدفق مثل هذه الكلمات المنتقاة التي لم يذكرها

و لم يعرفها من قبل .
وبعدئذ استطرد حديثه عن الصبيان الذين كان يعلمهم وعن كل ما قاله لهم ، والأكثر من ذلك تحدث عن أنه كان يعرف كيف يسب أحدهم بل ويضربه . ولكن هذا كان في حين من الأحيان ، في الزمن البعيد حينما كان شابا . ثم أخذ يتحدث عن الناس الذين عرفهم ورافقهم حتي القبر أو لقنهم الشهادة في لحظة الاحتضار . وتذكر أحد دروس الوعظ عندما بكى الناس بينما كان يخطب فيهم فتملكه الحماس وأخذ يعيد الخطبة . وبعد ذلك انتقل فجأة إلى سرد حكاية طفل ميت سقط في مرجل يغلي به خل و لم يجرؤ أحد على إخراجه إلى أن حضر هو . وتعجب من نفسه كيف تذكر ذلك الآن وتملكه الاضطراب وصمت .
ـ انتظر يا **عبد الوهاب يا ابن حواء** ! إنك لا تحدثنا إلا عن جوانبك الطيبة و لم تقل لنا أي شيء عن ذلك الجانب الآخر ! ماذا عن ذنوبك ؟
واضطرب **إلهامي** وأخذ يقلب في ذهنه ولكنه لم يتذكر على الإطلاق .
ـ ماذا ، أليست لك ذنوب ؟
ـ لي ، كيف لاتكون لي ذنوب ؟
ـ قل حتى نسمعها هى أيضا !
وتذكر عندئذ أول جبة له التي حاكها **فيصل أغا الترزي** . واستطرد قائلاً :
ـ كنت أنتظر بالكاد أول جبة لي لأنني في نفس الوقت كنت قد أصبحت إماماً . وقد اشتريت قماش الجوخ بصعوبة ، للجبة وللسراويل أيضا . وإذا **بفيصل أغا** قد أخطأ في تفصيل القماش لي وأفسد كل شيء . لقد تقدمت به السن وفقد بصره تقريباً و لم أستطع أن أرتديها لشدة ضيقها عليّ . وتمنيت له كل شيء قبيح ! والآن أشعر بالخجل ! وبعد ذلك ذهبت إليه ورجوته أن يصفح عني . ولما توفى ختمت قراءة القرآن ترحماً على روحه ووهبت القراءة له . وأفكر دوما : هل هو قد صفح عني يا ربي ؟
وتهيأ **لإلهامي** أن شخصا ما في أحد الأماكن قد أطلق تنهيدة عميقة وبدأ يبكي .
ـ هل هناك شيء آخر ؟ أي شيء أكبر من هذا ؟

وأجهد **إلهامي** فكره ولكنه لم يستطع مطلقاً أن يتذكر ، وأحس برغبة في البكاء بسبب تعبه .

ــ وهذا الذي تفعله مع **الجلالي** ، كيف وقع ؟ أأنت يا **عبد الوهاب** تثور ضد الإمبراطورية و ..

ــ لقد تحدثت معارضا الظلم .. لأنه يقال : **محظور** أن تظلم الحيوان ، ناهيك عن الإنسان !

ــ ولو كنت تعلم يا **عبد الوهاب** ما ينتظرك فماذا كنت ستفعل عندئذ ؟

ــ كنت أعلم أنه تنتظرني إحدى الهدايا . وعند كبار القوم تكون الهدايا كبيرة .

ولما قال ذلك تعجب شخصيا من أين له مثل هذه الإجابة .

ــ هل كنت تخشى الموت ؟

ــ كنت أعلم أن ربي هو منبع الرحمة ، وكنت أثق في رحمته .

ــ والآن قل لنا يا **عبد الوهاب يا ابن حواء** من هم أولئك الأبرياء الذين قتلوا على طريق الحقيقة ؟

فهمس قائلاً :

ــ الشهداء .

ــ وأين مثواهم ؟

ــ في الجنة .

وفجأة ساد الهدوء . وأحس أن نسيماً عطراً يداعب وجهه . وغمره ضياء « النور » ووصل إلى مسامعه خرير الكوثر وكأنه أجمل أصوات الآلات الموسيقية وأحس بعذوبة عاتية . وبحيوية لم يشعر بها أبداً في حياته من قبل وانفلق القبر وعاد إليه بصره وتنبه ..

وظل لفترة من الوقت جالساً بلا حراك . وسعى وهو مغمض العينين إلى أن يستمتع لحظة أخرى أيضا بالنشوة التي استولت عليه . وما زالت كلمة الشهيد ترن في أذنه وقلبه وأحس بأسف شديد لأنه استيقظ ولأن هذا لم يكن إلا حلماً .

□□□

□ □ ونهض لكي يجدد وضوءه ، ثم توجه إلى ضريح **ابراهيم ديد يتوفو** وهو حزين وغارق في الفكر . وأعاد ضريح **ابراهيم ديد يتوفو** المعوج الذي أصابه السوس والشاهد الحجري الأبيض وحشائش غزيرة تنمو حولهما بالإضافة إلى بعض الخراف التي ترعى في هدوء — كل هذا أعاد الطمأنينة إلى قلب **إلهامي** ثانية . ورفع يديه وقرأ الفاتحة على روح الأموات ثم توجه إلى قبر **ميلييا** . والشاهد المرتفع عند المقدمة وعليه عمامة الدراويش لأتباع الطريقة القدرية الصوفية يشير إلى قبر هذا الرجل المشهور من سكان مدينة سراييفو ، وقد سمع عنه كثيرا في شبابه .

« يرتدي عمامة صوفية ، وشعره طويل ورقبته طويلة ، وهو درويش من أصل بارز ، رقيق وأنيق ومتعلم ، شاعر حافل بالعلم وعاشق للكتب الجميلة ورسام » — هكذا وصف المعاصرون **ميلييا** الذي كان يملأ قلب **إلهامي** بالدفء . إنه لم يحفظ شكله فقد كان صغيرا حينما توفى **ميلييا** بالقرب من مدينة ترافينك حيث كان قد توجه إليها لكي يطلب من **عبد الله باشا** ، الوالي آنذاك ، العون لإصلاح تكيته الموجودة في سراييفو . ويمكن على أفضل نحو التأكد من وفائه لتكيته وطريقته من فص حجر العقيق الموجود على ختمه وخاتمه وحفرت عليه الكلمات التالية : **محمد ميلييا** — غبار التكية ...

وعند القبر ألقى **إلهامي** السلام وجلس القرفصاء وأخذ يقرأ سورة يس بصوت خافت . وصوته يسبح في عذوبة عبر سكون بعد الظهر ، وفراشة صفراء تحوم لفترة من الوقت حول الشاهد الحجري لقبر **ميلييا** ، ثم هبطت على الشاهد وطوت جناحيها وهدأت ، وبعد ذلك طارت ثانية .

ولما قرأ سورة يس ووهبها ظلّ لفترة من الوقت جالساً في صمت بالقرب من القبر وكأنه يتحدث مع **ميلييا** المتوفى . ثم نهض وتوجه نحو الضريح وخلع حذاءه ودفع الباب الذي أصدر صريرا ودخل واستقبله شبه ظلام وصمت ونسيم لطيف .

□ □ وظل **إلهامي** في الضريح إلى وقت صلاة العصر . وقرأ أولاً سورة يس على روح **إبرهيم ديد يتوفو** ثم قام إلى الصلاة وواصل قراءة القرآن . وكان يقرأه وهو راكع على ركبته مطأطيء الرأس ومغمض العينين ، وتنصت على صوته شخصياً ، الذي تهيأ له بعض الأحيان أنه ليس صوته . وحينما يفتح عينيه يلمح الصندوق الخاص بالضريح وقد تغطى بالجوخ الأخضر وعليه آيات قرآنية مطرزة بالخيوط الذهبية . ثم يستأنف ثانية قراءة القرآن ، وكان يقرأ من أعماق قلبه بينما رعشات السمو تسري أكثر فأكثر في جسده ، كان متواجداً على الجانب الآخر من الحياة و لم يشعر بأي شيء سوى بالطمأنينة التي تملكته تماماً .

وانعكست أشعة الشمس على وجهه وعاد إلى الدنيا ، وانغرز في قلبه الحد القاطع للواقع ، وثارت فكرته الوحيدة ببرودتها وقسوتها وحطمت طمأنينته : **الجلالي** ! وشعر برغبة في الصراخ ، وتهيأ له أنه سيختنق وأراد أن يهرب طالما أن الهرب ممكن وأخذ يجاهد ويتشاجر مع نفسه .

وصاح في تضرع :

ـــ يا إلهي ، لا تتركني وحدي !

ونظر بحزن إلى ضريح **إبراهيم ديد يتوفو** وقال :

ـــ طوبى له ، لقد أنجز كل ما عليه ، إنه شهيد !

وتنهد وغطى وجهه بيديه ، ووفقاً للشمس فمن الممكن أن يكون الوقت عصراً . فاستجمع حواسه ونهض ونوى الصلاة ولما ختم صلاته وألقى السلام قرأ الدعاء وتوسل إلى الله أن يمنحه القوة لأنه كان يقترب من اليوم ومن المكان الذي سيتحدد فيه مصيره ، وكيف سيكون مصيره ، لم يكن يرتاب في ذلك وكان يعلم ما ينتظره منذ أن وصل الخبر من ترافنيك ، وكان رئيس مدينة ماجلاي الذي استدعاه لكي يبلغه بذلك ، متأثراً

هو أيضاً .

وقال له في عطف :

ــ يا شيخ **إلهامي** يستدعونك إلى ترافنيك ، **والجلالي** شخصياً يستدعيك . وأنا لا أستطيع مساعدتك . ليكن الله في عونك . تحرك بنفسك لأنني لا أريد أن يطاردك أحد ، فلست بقاطع طريق ولا بقاتل !

رئيس مدينة ماجلاي المسكين ! لو أنه يعرف الآن أنه سيأتي عليه قريباً الدور وأنه لن يعود بعد ذلك إلى ماجلاي

وهمس **إلهامي** وهو خارج من المدفن :

ــ يا ربي ! أنت أفضل من يعرف لماذا يستدعوني وماذا ينتظرني هناك إذا كان هذا بسبب ما قلته فلا تجعل الخوف يهزني فيدفعني إلى أن أنكر أو أندم على ما صنعته ، ولا تسمح بأن يتسلل الخوف إلى عيني وبأن يتم الإحساس بالرجفة في صوتي ! ساعدني على أن أظل صلباً ثابتاً على طريق الحقيقة وأن أغمض عينى واسمك في قلبي ! وعند تسوية الحساب في يوم الحساب الأخير كن بي رحيماً ، واغفر خطايا عبدك المذنب **إلهامي** ! أتوسل إليك بقلب منكسر يا إلهي !

□□□

□ □ وأخذت الشمس تقترب من مغربها ولما تزل تلتهب بحرارة لاذعة وسطوع بينما كان إلهامي يقترب من ترافنيك ، وكان متعباً ومكتئباً وقلبه مفعم بالحزن لا بسبب ما ينتظره في ترافنيك بل بسبب إحساسه بأنه اجتهد طوال حياته في أن يكون ويظل نقيا وأن يعيش ويعمل بعدالة . والآن في نهاية رحلة حياته ينتظره سيف الجلالي ، وواسى نفسه ثانية بأن تلك هى شئون البشر ومقاييسهم إلا أن الحكم النهائي سيكون مختلفاً .

وتوقف ثانية أمام المدخل المؤدي إلى ترافنيك ، وأراد أن ينعش نفسه ويغير وضوءه . فقد رغب في أن يدخل المدينة متوضئاً ، وتملكه الاضطراب حينما لمح قمم جبال فلاشيتش وفيلينيتسا والأهلة التي أضفت عليها أشعة الشمس لوناً ذهبياً على قمم مآذن مساجد ترافنيك ، ويتملكه الارتباك من جديد على الدوام كلما دخل إلى ترافنيك ، ولم يكن هذا كثير الحدوث ، فقد حدث ثلاث أو أربع مرات طوال حياته . فهى مدينة السادة يسودها اللون الأبيض ، وتكتظ بالشواهد البيضاء للقبور التي لم يعد يوجد مثلها في أية مدينة من مدن البوسنة . وهي مدينة تزينها المساجد التي يختلف كل منها عن الآخر لأن كل فاعل خير أراد أن يضفي عليها شيئاً من عندياته ، وهي مدينة حافلة بالمياه الباردة الصافية والخضرة وبالأشخاص ذوي الفطنة والحذر أيضاً ، ولمح قلعة على منحدر جبل فلاشيتش ، وتذكر قصر الوالي في وسط المدينة ، وفجأة هب عليه هواء بارد ومر من أمامه .

ولم يوقفه أحد عند مدخل المدينة ، ولم يعره اهتماماً بعض رجال الوالي الذين كانوا يقفون ويتحدثون أمام بوابة المدينة . ومر بالقرب منهم وهو يتساءل في دهشة : أين سكان مدينة ترافنيك ؟ وذلك لأنه لم يلتق في الطريق إلا بالقليل منهم . وكلما استمر في تقدمه كلما ازدادت دهشته . وكأن الطاعون قد أهلك المدينة ، ولم يكن يعلم أن سكان مدينة ترافنيك يُغلقون منازلهم قبيل المغرب منذ أن جاء الجلالي . ولم يكن يهبط

إلى السوق إلا المضطر ، بل و لم يكن أحد يخرج من المنزل . فالخوف يزحف على ترافنيك نهاراً وليلاً ، ويمر الناس بالقرب من قصر الوالي في خوف وفي عجلة وبعينين مسددتين إلى الأرض ، ويتم همساً داخل المنازل والمحلات ذكر أسماء من جاءوا بهم ثانية واقتادوهم ، وذكر أسماء من انطلقت من أجل إعدامهم المدافع اليوم أو بالأمس ، وأسماء أعيان البوسنة الذين احتسوا « الشربات » المسموم ، وبالرغم من ذلك كانت الأخبار الجديدة تصل من القلعة ولم يكن من الممكن اخفاء شيء . والأخبار كالمياه الحية : تجد طريقها وتشقه . ورجال **الجلالي** يتناقلون الأخبار الجديدة ، مهما كانوا أوفياء ومحل ثقة ، من قصر الوالي ومن القلعة . وكان من العسير التغلب على سكان مدينة ترافنيك ، والقضاء على الرشوة بشكل خاص . وحتى **الجلالي** لم يجتهد في أن يظل هذا خافياً ، بل وكان يريد أن يعرف ويسمع أنه سيعيد الرشد أخيراً إلى البوسنة وأعيانها وأنه سيخضعها . وإذا لم تشأ ذلك راضية فسترضى مرغمة ! وذلك حتى لا يتفاخر أهلها بعد ذلك بأنه بمقدورهم أن يتصرفوا كما كانوا يتصرفون حتى الآن دون أن يأخذوا أحداً مأخذ الجد ، وحتى لا يظنون أن اسطنبول تقع في آخر الدنيا فلا يمكنها أن تمسك بهم ، وأن الولاة عرضة للسخرية ، لن يحدث ذلك ، وهذا ما أقوله لكم أنا **جلال الدين علي باشا** ! ستُقبِّلونَ قدميّ ويدي ، وستموتون خوفاً من اسمي !

وتوقف **إلهامي** أمام مسجد **السليماني** . وحينما كان في ترافنيك آخر مرة ، ومضى على ذلك الحين خمس أو ست سنوات ، كان المسجد قد أصبح خراباً ، ولكنْ جدَّدهُ مؤخراً **سليمان باشا السكوبي** ، وعلاوة على ذلك زينه من الخارج فكان يبدو الآن كحديقة زهور . ومن العجيب أنه هنا في وسط مدينة ترافنيك لا يرى إلا عدداً قليلاً من الناس ، وقد أغلقت أبواب كثير من المحلات في المنطقة المنخفضة عن المسجد رغم أنه لا يزال هناك وقت طويل حتى صلاة المغرب وفكر **إلهامي** في حزن : لو لم يكن الحال على ما هو عليه لقام الآن بزيادة **عبد الرحمن أفندي** مدرس مدينة ترافنيك وكما كان يحدث في بعض الأحيان فسيبقى في دار الضيافة عدة أيام . أما والحال هكذا فلم يكن يجرؤ حتى على التفكير في القيام على الأقل بزيارته لأنه ليس من الممكن حدوث ذلك دون أن يصل النبأ إلى مسامع **الجلالي** . و لم تكن لديه الرغبة أو القدرة لزيارة

أي مكان آخر ، وهو لا يملك مليماً ولا قرشاً لكي يدفع أجر الفندق أو لكي يتناول طعام الإفطار في أحد المطاعم . حتى لو كان يملك المال فليست لديه رغبة في ذلك . لقد كان يريد أن يضع بأسرع ما يمكن نهاية لهذه الرحلة الشاقة التي لاقى خلالها معاناة وسقوطاً ونهوضاً وسمواً ، ولذا اتجه مباشرة إلى قصر الوالي . وفي طريقه أخذ يقرأ القرآن همساً ويطرق بانتظام بعصا الدراويش على الطريق المرصوف بالأحجار الصغيرة والموصل إلى السوق .

□□

□ □ ولما وصل إلى منطقة جورينا تشارشيا توقف وتنهد في انفعال ، وبرز له قصر الوالي الذي كان يطل متواعداً من بين الأشجار ، وهو قصر ضخم طوله ضعف عرضه وبه كثير من النوافذ التي تطل على جميع النواحي .

ـــ ياربي ، هاأنذا قد وصلت إلى المكان المقدر لي أن أصل إليه ، اللهم امنحني القوة !

ومر بالقرب من برج الساعة وتوقف أمام بوابة قصر الوالي واستقبله الحراس المدججون بالسلاح .

ـــ قف ؟ إلى أينَ ؟

وأخرج خطاب القاضي وقدمه لهم .

وألقوا نظرة على الرسالة وتأملوها . وطلب منه أحدهم أن ينتظر وتوجه بالرسالة إلى داخل القصر . والشمس لا تزال حارقة فالتجأ **إلهامي** إلى شجرة زيزفون قريبة ونزع حقيبته وجلس القرفصاء ، وامتلأ قلبه وروحه بحزن خافت . وأحس وكأنه وحيد تماماً هنا بالقرب من الناس ، واختفى ذلك الامتلاء الروحاني وكأن كل شيء بداخله قد أصبح فجأة فارغاً ومتلاشياً ، والعصافير فحسب تغرد بلا انقطاع على شجرة الزيزفون .

ومرت نصف ساعة كاملة إلى أن عاد الحارس ودعاه لأن يتبعه .

وامتلأ الفناء الفسيح للقصر بأشجار الشمشار ، ومن الجانب الأيمن للباب المفتوح على مصراعيه ، الذي يقود إلى داخل القصر ، تزدهر بوفرة شجيرة مزهرة كثيرة الأغصان تتسلق على الجدار إلى نوافذ الطابق الأول . ودفقات المياه تنبثق من النافورة المقامة في وسط الفناء ، ورجال الوالي يمرون من حين لآخر عبر الفناء داخلين القصر وخارجين منه بينما بعض الحمائم الضخمة برقابها المنتفخة وذيولها المنبسطة تطارد ـــ وهو يصدر هديله ـــ الحمائم الصغيرة الوديعة التي كانت تبتعد عنه بمهارة .

وقال الحارس بصوت خافت :

ـــ قف هنا وانتظر .

وسرعان ما ظهر على الباب رجل قصير بعض الشيء ويرتدي قفطاناً أبيض يمتد حتى الأرض ويضع على رأسه عمامة من الحرير الأخضر ، ووجهه مكتظ بالمسام مثل نبات عش الغراب المقلوب ، وهو أجرد الوجه بدون لحية أو شارب . ونظر إلى **إلهامي** فترة من الوقت ثم سعل سعالاً خفيفاً كالقطة .

وهمس الحارس قائلاً :

ـــ هيا !

وسار **إلهامي** وحينما اقترب منه لمسافة أربع أو خمس خطوات رفع الرجل القصير يده فتوقف **إلهامي** .

وكان هذا هو **سليمان أفندي** ياور الوالي وواحداً من أكثر الرجال نفوذا في القصر .

وأشار باصبعه إلى **إلهامي** قائلاً :

ـــ أهو أنت ؟

وكان يسأل باللغة التركية وصوته حاد ويحدق في **إلهامي** بعينيه الصغيرتين الثاقبتين .

ـــ **عبد الوهاب الجيبتشاوي** .

ـــ **إلهامي** ؟

ـــ **إلهامي** .

ـــ شاعر .

ـــ إنني إمام وخطيب مسجد **فرهاد باشا** في جيبتشه .

ـــ ولست شاعراً ؟

ـــ أنا كذلك بقدر ضئيل ...

ـــ هيه ، بقدر ضئيل ...

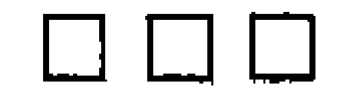
وابتسم الياور بحيث تلألأت كالثلج أسنانه البيضاء التي جعلته فجأة أصغر من سنه .

وسادت فترة قصيرة من الصمت والياور لا يزال ينظر بإصرار إلى إلهامي من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، وكأنه بالضبط يعريه بنظراته . ثم أعطى إشارة إلى الحارس وقال له شيئاً بصوت خافت واستدار وعاد إلى القصر ، وكلما خطا خطوة لمس القفطان الأرض ، وبدا وكأنه سيتعثر فيه .

وأمره الحارس قائلاً :

ـــ هيا .

وتحرك نحو البوابة ووضع إلهامي الحقيبة على ظهره وسار .



□ □ كانت الشمس تغرب دامية ، وأخذ النسيم العليل والهدوء يحلان على مدينه ترافنيك .

ـــ هيا ، أسرع !

هكذا تعجله الحارس بعد أن عبر البوابة .

وكانت الأزقة قفراً تقريباً ، وبعض المارة القليلين ينظر إليهما شذراً ثم يسرع الخطى .

وحينما اتجها صوب جبل فلاشيتش عرف **إلهامي** وجهتهما ، فهناك بأعلى ، على التل ، ترتفع قلعة ، وبدا **لإلهامي** أنه لا يوجد بداخلها أحد وأنها تستتر ولا تنتظر إلا إياه . إنها قلعة خرساء وصماء أمام جميع متاعبه . ومئذنة مسجد القلعة ترتسم بخطوط حادة في وقت الغروب .

وانطلق الآذان في اللحظة التي وطئا فيها الجسر الحجري المقنطر فوق الخندق غير العميق الذي يتم عبره دخول القلعة . وارتفعت أصوات المؤذنين من مساجد ترافنيك وسبحت بلطف خلال سكون المغرب . وفي نفس الوقت انطلق الآذان من المسجد الموجود بالقلعة .

ـــ الله أكبر ، الله أكبر ...

وهمس **إلهامي** قائلاً :

ـــ أشهد ان لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ..

وشرع في بكاء جاف بسبب الانفعال . وتذكر ، من يعلم لأية مرة ، مسجد **فرهاد باشا** . ياربي ، كيف كان يشعر بالطهر والشموخ عند دخوله المحراب ، وكيف كل هذا بعيد الآن .

وسمع صيحة :

ـــ قف ! من ؟

فأجاب الحارس من وراء ظهر **إلهامي** :

ـــ استدع قائد القلعة ، أحضرت شخصاً .

ـــ انتظر !

ووقفا وانتظرا ، وطارت فوقهما دون صوت أول الخفافيش التي أتت من القلعة .

وظهر قائد القلعة واقترب منه الحارس وقال له بضع كلمات ثم التفت إلى **إلهامي** قائلاً :

ـــ من هنا !

ومضى **إلهامي** . وبدا له كل هذا وكأنه حلم قبيح .

وأمره قائد القلعة دون أن ينظر إليه بقوله :

ـــ هيا ، معي !

وسارا في صمت في الطرق المنحدرة عبر القلعة ، حيناً تحت السماء المفتوحة وحيناً آخر عبر بعض الممرات الحجرية التي يصل إليها بالكاد الضوء الضعيف للغروب ، ومرا عبر الجزء السفلي من القلعة ، ثم سارا بجانب البرج الذي توجد به الذخيرة إلى أن صعدا إلى أعلى مكان حيث توجد الزنزانات .

وتوقف قائد القلعة والتقط أنفاسه ثم صاح قائلاً :

ـــ يا **شلبي** ، يا **شلبي** .

ورد على النداء أحد الأشخاص من مكان ما .

ـــ تعال !

وفي البداية سُمع سُعالٌ ربويّ ثم ظهر **شلبي** يسير متهادياً .

ـــ اسمع يا **شلبي** ضع هذا مع أولئك الجدد ، ثم أحضر له العشاء وأشعل الفوانيس .

ـــ يبدو أن العشاء أرز .

ـــ ليكن ، أحضره . هيا ، قُدْ هذا .

ومد **شلبي** يده بالمفاتيح .

ـــ هيا ، ماذا تنتظر ؟

ومرا بجانب بعض الأبواب الحديدية المنخفضة التي تتخذ شكلاً نصف دائري ومن

ورائها تسمع أصوات جشاء ، وهى تصل من أحد الأماكن بأسفل ، وكأنها صادرة من تحت الأرض . ويتوقف **شلبي** عند كل باب وهو يزمجر وكأنه يفكر بصوت عال في أية زنزانة سيضع **إلهامي** .

ـــ قف .

واقترب من أحد الأبواب ودس المفتاح في قفل الباب وفتحه .

ـــ هيا ، ادخل .

واستدار **إلهامي** ، وبأسفل ، تحت القلعة ، تلتف ترافنيك بالظلام أكثر فأكثر ، والمنازل حافلة بالأضواء والخفافيش تحوم كثيراً .

ودفعه **شلبي** قائلاً :

ـــ ماذا تنتظر ، ادخل !

ودخل **إلهامي** ثم توقف ثانية وقد استقبله الظلام .

وقال أحد الأشخاص من الظلام وهو يتكلم بلهجة غجرية :

ـــ يا **شلبي** ، اعطنا فانوساً ، أطال الله عمرك !

ـــ عجباً !

ـــ البك هو الذي يطلب ، ولن يكون مجاناً ، سيمنحك مكافأة .

ـــ انتظر .

ـــ سأنتظر ، ولكن البك لا يمكنه أن ينتظر . إنه على وشك البكاء ، أطال الله عمرك .

وانغلق الباب ودار المفتاح في القفل ، **وإلهامي** لا يزال واقفاً في نفس المكان .

وقال نفس الصوت :

ـــ على مهلك ، توجد درجات سلم !

وأمسَكَت به يد أحد الأشخاص وقال :

ـــ هيا ، لا تخف !

واعتادت عيناه على الظلام ، وظهرت حوله على الأرض خيالات ثلاثة أشخاص ، ولم يتبين وجوههم .

وقال صوت مسن في حيب :

ــ يا رامو ، هل طلبت الفانوس ؟

فأجاب ذلك الشخص وهو يصيح بأعلى صوته قائلاً :

ــ أجل يابك ،أجل ، كيف لم أطلب !

ــ فماذا قال ، هل سيحضره ؟

ــ سيفعل يا بك ، سيحضره .

ــ متى ؟

فقال ذلك الشخص بصوت خافت وهو يبتسم :

ــ قبيل الفجر .

ــ هيه ، ماذا تقول ؟

ــ أيها الأخوة ، إنه أصم تماماً .

ــ متى سيحضره ؟ وماذا يقول ؟

ــ الآن ، الآن ، حالاً .

وجلس إلهامي على الأرض وهو يشعر بالضياع الكامل .

وقال ذلك الشخص ثانية :

ــ وجاءوا بك أيضاً ؟

وهمس إلهامي مجيباً :

ــ أجل .

وتنهد إلهامي .

ــ لا يصح ، والله لا يصح ، أنا هنا منذ شهر كامل ، وهذانّ الاثنان جديدان . جاءوا بأحدهما بالأمس ، وهو من البكوات بقدر ما يرى . وأحضروا الثاني أول أمس ، وهو جريح ولذا يرقد فحسب ويصمت ويتقلب وينظر دوماً إلى الجدار . هذا الرجل المسن أصم وهو أيضاً من البكوات وهو موجود من قبل . وقد جاءوا به منذ أسبوعين وهو أيضاً يتنهد فحسب ويتملكه الخوف ، ولديه مبرر لذلك ، لأن الجلالي لا يعرف المزاح . والمدفع ينطلق على فترات ، وطلقة المدفع تعني إعدام أحد البكوات[٢]. وأنا لن يعدموني ،

فلست من البكوات أو من الضباط . إنني غجري ومزيف كما يقال باللغة التركية ، تعرف ، كنت أسك النقود ، لم أسك كثيراً ، خمس أوقات ، ولكنها نقود نحاسية ، وجدوا عندي قالباً للنقود فساقوني إلى ترافنيك ، ولا أعلم ماذا سيكون بشأني ، المهم أنني ما زلت حياً . وينجوا عدد قليل من البكوات والضباط ، فالمدفع ينطلق من أجلهم كل يوم . وحينما جاءوا بي إلى هنا كان يوجد سبعة أشخاص ، وكلهم من البكوات ورحلوا واحداً تلو الآخر ، وإذا اقتادوا أحداً فهو لا يعود بعد ذلك . وأنا وحدي أنتظر انطلاق المدفع ..

وسب أحد الأشخاص من الظلام قائلاً

ــ اسكت ..

ــ أوه ، إنك حي .. وأنا ظننت أنك رحلت . فأراك لا تتحرك ولا تتكلم .

ــ اصمت كما قلت لك ، سأخنقك !

ــ هيا ، لأرى ، سأصمت .

وأصدر الباب صريراً وظهر **شلبي** ومعه فانوس ، وهو يسعل ويتأوه بلا انقطاع ، وبدا وكأن الصرير صادر عنه .

ــ يا ظالم ، خذ الفانوس !

ــ أطال الله عمرك .

ــ وأين ... ؟

ــ لقد أخذت في الصباح !

ــ لا تثرثر .

ــ انتظر إذن لكي أسأل البك .

وتراقص الضوء الأصفر على الجدران الحجرية للزنزانة ، واقترب الغجري الصغير النحيف ــ كالقط الصغير الجائع ــ من الرجل المسن الذي كان يجلس على حاشية مفروشة على الأرض . وفي الطرف الآخر من الزنزانة يجلس ذلك البك ، الذي كان **إلهامي** ــ قد التقى به بالقرب من قرية فيتز ، وهو جالس وينظر كأنه شارد الذهن وهو يستند بكوعه على حقيبة جلدية متضخمة . والسجين الثالث يرقد ممدداً بجانب الجدار على بطنه ،

وفي بعض الأحيان يتأوه بصوت خافت . والزنزانة منخفضة وبجدارها فتحة ضيقة مصفحة بالحديد من الخارج وهناك قليل من القش منثور على الأرض .

وصاح الغجري :

ــ يابك ، لقد جاء الفانوس ، هات شيئاً للبقشيش !

ورفع العجوز رأسه وهو يغمض عينيه في مواجهة الفانوس وقال :

ــ ها ؟

وكان أشيب الشعر وقد طالت لحيته واتسخ كساؤه العسكري المصنوع من الحرير الأصفر المخطط ، ورأسه ترتجف باستمرار .

ــ هات شيئاً **لشلبي** ، إنه يطلب .

ــ أجل ... أجل ...

وأخذ البك يبحث عن حافظته .

ــ هاهي ، تجلس عليها .

وبحث البك لفترة طويلة في الحافظة إلى أن أخرج ديناراً ذهبياً .

ــ ها هو ، أعطه !

ــ هذا كثير .

وصاح **شلبي** قائلاً :

ــ اسكت يا ظالم ، لماذا تتدخل !

واقترب منه واختطف الدينار من يده قائلاً :

ــ انظر إليه ! سألقي بلك في البئر إذا تدخلت في شئوني !

ــ لم أقل لك شيئاً يا صاحبي الرائع **شلبي** ! حلال عليك رزقك ، ولتنفقه وأنت في صحتك !

وخرج **شلبي** وهو يزمجر وأغلق الباب وراءه واستأنف **رامو** كلامه موبخاً :

ــ إنه مزيف أسوأ مني ! كم فقط أُخذ منه من نقود بالحيلة خلال خمسة عشر يوماً هذه ! كل يوم : هات . ولا يكتفي مطلقاً . هيا ، هلكت قبل الفجر وسأرقص على قبرك.

واستدار ذلك السجين الذي كان يرقد بجانب الجدار وقال :

ــ يا لك من ثرثار !

ونظر إليه **إلهامي** وعادت إليه حيويته ، كان هذا هو زعيم قُطّاع الطرق الذين اقتادوه بالأمس جريحاً ،وابتهج هو الآخر حينما لمح **إلهامي** بالرغم من أن رأسه كانت زرقاء زرقة غامقة ومتورمة كلها ، وعينه الأخرى دامية وجاحظة وكأنها ستسقط .

ــ **يا إلهامي** ... أفندي ... أهو أنت ؟ هل وصلت ؟

وابتسم **إلهامي** قائلاً :

ــ وصلت ، وصلت .

ونهض واقترب منه .

ــ كيف حالك يا بني ، هل أنت مجروح جرحاً شديداً ؟

ــ في مكانين ، وأسوأ شيء بالنسبة لي أنني لا أستطيع الوقوف على قدمي ، ليتهم تخلصوا مني في الحال لأن الموت أكيد . أما والحال هكذا فأنا أعاني فحسب ، والدم يسيل مني كلي ... والآن لا أكترث ، لقد داسوا عليّ أولاد الـ ..

ــ إيه يابني ، إنه من حسن حظك ..

ــ ليكن لا تقل لي شيئاً عن ذلك بالله عليك ! أعرف ماذا تريد أن تقول . وها أنت ، كنت ولياً فماذا ؟... وأنت الآن معي ومع هذا المزور الذي ...

ــ ولماذا يا أخي فيم أضايقك ؟ وماذا كان سيفعل البك المسن بدون وجودي ؟ من كان سيخدمه ؟ وقد عاونتك أنت أيضاً كلما طلبت الإناء الكبير . ألا تفعل كذلك يا أخي ، إلى أين ستذهب روحك ؟

ــ قلت لك لا تثرثر !

وأخذ **إلهامي** يهدئه قائلاً :

ــ اسكت ، اسكت واهدأ وارقد . هاأنذا ، سارقد أيضاً بجانبك فإذا احتجت لشيء وإذا كان بإمكاني أن أساعدك فقل فحسب .

ــ شكراً لك ..

واستطرد **إلهامي** بصوت أكثر هدوءاً وهو يجلس بجانب رئيس قطاع الطرق قائلاً :

ـــ حينما رأيتك في الطاحونة كنت أخشى أن تظن أنني ربما أبلغت عنك وأرسلت إليك الحراس ...

ـــ يا أستاذ ، لا يمكنني ـــ ولا حتى في المنام ـــ أن أفكر في ذلك . إنك لست من هؤلاء الأشخاص ، لقد أفشى الفلاحون سرنا يا أخي . الفلاحون ! خافوا من الجلالي فأبلغوا عن مكاننا وقبضوا علينا ونحن نيام في الكوخ وقتلوا اثنين في الحال وجرحوني ويبدو أن اثنين هربا ، ولا أعرف أن أقول لك هل وصلوا إلى الغابة .. ولكن ، أعطني قليلاً من الماء ، فأنا أحترق من العطش .

وقفز **رامو** وأحضر جرة الماء قائلاً :

ـــ ها هي يا أخي ، لماذا لم تقل لي !

ـــ اشرب بقدر ما تستطيع ولا ينبغي أن توفر فغداً سأملؤها ثانية .

وشرب قاطع الطريق ثم سعل .

وقال له **إلهامي** منبهاً :

ـــ على مهلك يا بني حتى لا تضر نفسك .

ولما أطفأ قاطع الطريق ظمأه تحدث **إلهامي** وكان لم يفطر من صومه بعد قائلاً :

ـــ شكراً ، وأنا أريد قليلاً لو كان من الممكن .

ـــ تفضل أنت أيضاً ، كيف لا يمكن !

وسأل قاطع الطريق وهو يتذكر لقاءهما في الغابة حينما قدم له الأكل بقوله :

ـــ ربما أنت صائم ؟

فهمس **إلهامي** قائلاً :

ـــ أجل إني صائم ...

ـــ ولم تفطر من صومك ... ؟

ـــ هاأنذا سأفطر الآن ...

ـــ ها هو ، خذ طعامي ، إنني لم أمسه ، خذ بالله عليك لو كان عندي شيء أفضل ...

وفجأة قفز ذلك البك الشاب الذي كان يجلس مستنداً على الحقيبة وتهيأ لهم

إنه لا يرى ولا يسمع .

ـــ هاهو يا أخي ، يوجد كل شيء ، خذ وكأنه ملكك !

ونقل وهو يتحدث الحقيبة المليئة ووضعها أمام **إلهامي** ، وأخرج مئزراً وفكه وبدأ يخرج الطعام ، وكانت كل الأنواع موجودة ، من لحم البفتيك والفطائر إلى البقلاوة ، وعلاوة على ذلك أخرج بعض ثمار الكمثري الطازجة .

وأضاف في حزن :

ـــ هذه الثمار هى أغلى شيء عندي ، فلها رائحة عطرة ... وأنا الذي طعمتها .

والتفت إليه رئيس قطاع الطرق وقال :

ـــ أعلم أنك لست في حاجة إلى ثواب أكبر من ذلك ، لو تعلم فحسب من هو هذا الرجل وأى نوع من الرجال هو ! أمثاله قليلون . إنه **إلهامي** ، إذا كنت قد سمعت عنه .

ـــ سمعت ، كيف لم أسمع .

فقال **إلهامي** في تواضع وهو يطرق بصره :

ـــ دعك من هذا ..

ـــ تفضل !

ـــ أفضل لو أكل الآخرون أيضاً ... لو أكلت أنت أيضاً معي . ربما سيكون الطعام ألذ .

ورحب **رامو** واقترب وجلس وهو يقول :

ـــ طبعاً سآكل معك ، ما رأيكم أن أدعو إلبك أيضاً ؟ ماذا تقولون ؟ معه طعام ، اشتراه له **شلبي** ، ولكن مع ذلك ...

ـــ ناده .

وصاح **رامو** :

ـــ أيها البك ، الأصدقاء يدعونك لتناول طعام العشاء هيا ، كل شيء موجود .

ـــ هيه ماذا تقول ؟...

ونهض **رامو** وصاح في أذنه مباشرة :

ــ يدعونك لتناول العشاء !
ــ ليكن ، ليكن ، كلوا أنتم ..
ــ ماذا بوسعك مادام لا يريد ؟هناك من يريد !
وتناولوا طعام العشاء في صمت ، وساعدوا رئيس قطاع الطرق في أن يعتدل ويستند بجانب الجدار .
وقال **رامو** في تلذذ :
ــ لا أعلم متى أكلت مثل هذا الطعام ! واضح يا أخي أنه طعام بكوات !
ونظر إليه رئيس قطاع الطرق شذراً قائلاً :
ــ هل عدت ثانية ؟ ألا يمكنك أن تصمت ؟
ــ هيا ، حسناً ، سأصمت طالما أنك لا تسمح لي بالكلام .
وتوقف البك فجأة عن الأكل وتملكه الصمت وعقد يديه وتنهد .
وسأله **إلهامي** ــ وقد توقف عن الأكل ــ :
ــ ماذا ، أتشعر بسوء ؟
وتأوه البك بصوت أجش .
وبدأ **رامو** في التحدث قائلاً :
ــ تملكه الوجل بالطبع ، فليس الأمر بالسهل ...
ثم صمت بعد أن نظر إلى رئيس قطاع الطرق .
وقال قاطع الطرق بخشونة :
ــ ليكن ، هذا ما تستحقونه ، أنت والآخرون .
وصمت البك لفترة وهو يغطي عينيه براحة يده ، وبدا وكأنه يبكي . ثم رفع رأسه وقال :
ــ وما هذا الذي نستحقه ؟
ــ أن يقطع **الجلالي** رؤوسكم ، هذا هو ما تستحقونه ! تأتون إليه طواعية على أقدامكم .. كالأضحيات ، ألا يوجد بينكم أحد يهب ويثور ! ... اهلكوا ما دمتم حمقى ! ... من أنا وما أنا بالنسبة لكم ؟ شخص تافه ولا شيء ! أنا **موسى** البائس

من بلدة دوبوي ولكن امتلكت الشجاعة لأن أثور وأعمل بقطع الطرق ! ولكن اعلم جيداً أنني لم أنس الفقراء ! هاهو **إلهامي** ، فليقل ! لقد جاءوا به إليّ .

وأشار قاطع الطرق بأصبعه إلى **إلهامي** . فقال **إلهامي** في تسامح :

ــ ليكن ، ليكن ، دع هذا الآن ، ليس هذا حينه ...

ــ أبداً ، الآن بالذات هو حينه ! فمتى سنتحدث عن ذلك إذا لم نفعله الآن ولا يحزنني سوى أنني لم أبع رأسي بثمن أغلى ، ولست بآسف عليكم أنتم البكوات والضباط ، ولو قليلاً من الأسف . لولا أنكم خراف لما كان **الجلالي** ذئباً ! هذا أمر لا شك فيه ! ولكن عظامكم أصبحت لينة منذ فترة طويلة فليس عجباً أنكم أصبحتم على هذا النحو !

وشرع **رامو** في التحدث قائلاً :

ــ والله هذا الأخ ...

إلا أن قاطع الطرق قاطعه بقوله :

ــ اسكت ولا تثرثر .

ونظر البك أمامه في كآبة لفترة ، ورفع رأسه وتنهد .

ــ إنه صحيح ، كل شيء كما تقول .. ولكن فات الأوان .

وتحدث البك المسن وكأنه يتحدث في منامه :

ــ أي أوان ؟ هل بزغ الصباح ؟

وقال رئيس قطاع الطرق في غضب :

ــ ستنتظر أنت إلى أن تستريح ، وهم معك ..

ثم التفت إلى **رامو** قائلاً :

ــ أيها الغجري ، أحضر لي إناء الماء ، وأنت يا أستاذ ، معذرة ، أنا مضطر ، أشعر بألم وكأنني في حالة عجز ... آه ، أيها الجرح الفظيع ، لماذا لم يقتلوني على الفور ، بهذا الشكل أعاني كما لم يحدث لأحد من قبل ...

فقال **رامو** في غضب :

ــ انظر ، حينما تحتاج إلى شيء عندئذ تناديني !

ونهض **إلهامي** قائلاً :

ــ ليكن ، ليكن ، سأحضره أنا .

وأحضر **إلهامي** الإناء .

ــ لا تفعل يا أستاذ بالله عليك ، إنني خجلان ...

ــ انظر إليه ، ليتني إن شاء الله أستطيع أن أساعدك في شيء أكبر . هيا ، لا تخجل ، أنت مثل ابني .

ولم يسمح **رامو** بأن يعيد **إلهامي** الإناء بل أعاده هو ، ثم سَوَّى القش الذي كان قاطع الطرق يرقد عليه وساعده **إلهامي** على الرقود.

ــ والآن اهدأ وحاول أن تنام . وإذا احتجت إلى شيء فنادني ، أنا هنا بجانبك .

ولم يقل قاطع الطرق شيئاً ولكن سُمع صوت نحيبه بشهيق .

وانسحب **رامو** أيضاً وتكور على القش وفي التو أخذ يُصدِرُ شخيراً ، واستمر **إلهامي** والبك الشاب في الجلوس وتحدثا في همس .

والبك من بلدة فلاسنيتسا ، ومنذ نصف عام استدعى **الجلالي** أخاه الذي لم يرجع بعد ذلك ، وسرعان ما وصل النبأ بإعدامه .

ــ كان المرحوم أكبر مني سناً بكثير ولكنه أصبح أرملاً في وقت مبكر ، ولم يكن لديه أولاد ، وكان ــ رحمة الله عليه ــ شديداً بدرجة قليلة ، ولما جاء **الجلالي** وأخذ ينفذ بدعه ثار ضد هذا بكل قوته كما فعل كثيرون أيضاً ، ووصلت بالتأكيد أنباء ذلك ، الأمر الذي قضى عليه .. وعندما استدعاني **الجلالي** لم أتعشم أي خير رغم أنني لم أتدخل في أي شيء ، وليتني بحثت عن رزقي في مكان آخر بدلاً من التوجه إلى ترافنيك . حقاً يقول قاطع الطرق هذا : لو لم نكن خرافاً لما كان **الجلالي** ذئباً ! ولكن الآن ما حدث قد حدث ! لو كان لدي فحسب أربع وعشرون ساعة فأهرول إلى داري لعرفت ما سأفعله ! عندي ولد في زبيع عمره ، عنده ثلاثة عشر عاماً ، وسيقول له والده ماذا يفعل وكيف يتصرف ، ألا يستسلم لأي أحد حياً . هذا هو ما كنت سأقوله له أولاً ، وكنت سأعلمه أن يكون أكثر حكمة وبطولة من أبيه ! ... هيه ، ألن يسمح الله العزيز بأن يلقى **الجلالي** مصيره الأسود وأن يحصل على ما كسبت يداه !

وهمس **إلهامي** :

ـــ كل إنسان سيلقى مصيره ...

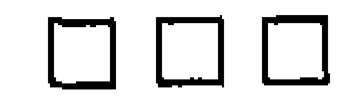
ـــ أعلم ولكن الانتظار عسير

ـــ إذا نظرت فهذا هو ، كما تقول ، حال الدنيا من بدايتها وحتى نهايتها ، ولكن لا ينبغي أن يكون المرء شديد الجوع من الحياة الدنيوية ، لأن رزق الدنيا قصير الأجل ويخشى أن يظل جائعاً بعد ذلك ...

ونظر البك لحين من الوقت إلى **إلهامي** في صمت وكأنه لم يتمكن من متابعة أفكاره ثم تنهد .

ـــ بالتأكيد إن الأمر كما تقول لأنك تعلم هذه الأمور معرفة أفضل ، أقول فقط ، ليكن الله العزيز في عوننا .

ونهض البك وكأنه محطم وعاد إلى مكانه وشبك يديه وظل ينظر أمامه .



□ □ كان الليل يتقدم ببطء وبدا أن الصباح لن يبزغ أبداً ، ولفترة من الوقت سمع صوت البوم يصدر من أحد الأماكن بأسوار القلعة ثم انقطع هو الآخر ، وبعد ذلك وصلت إلى الزنزانة أصوات غير واضحة وكأن شخصاً خفياً يتجول حول السجن وفي الطريق تعثر في شيء وسب .

والسكون سائد في الزنزانة ، والشمعة في الفانوس تحترق ببطء وفي بعض الأحيان يزداد لهيبها وينتشر ويهتز ثم يقل ويضمحل . واستغرق الجميع في النوم ما عدا **إلهامي** . وبين الفينة والفينة يرتعش **رامو** في منامه كالسمكة أو يثغو ثغاء قصيراً كالعنزة ثم يعود إلى التكور والسكون ، وأسند رأسه على الحقيبة ذلك البك الشاب الذي ظل ساهراً لفترة طويلة بلا حراك وهو ينظر أمامه كالمسحور ، واستغرق في النوم . وتمتم بشيء البك المسن الذي كان يلوك بلسانه في المنام فيبدو وكأنه يمضغ ، ثم استمر في المضغ ، واستكن قاطع الطرق منذ فترة طويلة فهو إما نائم وإما صامت ، **وإلهامي** فحسب يجلس كالمتسمر وهو يحرك المسبحة بين أصابعه بينما كانت رأسه تطرق على صدره من حين لآخر ، وكان يتجول بين الحلم واليقظة اللذين يختلطان أكثر فأكثر ويلقيانه من شاطيء إلى آخر بينما هو منهك من السفر الطويل ومن الصيام وموزع بين الخوف والعزم على المثابرة في طريقه الآخير صوب النهاية ، وعلى ألا يخور . وتهيأ له في لحظة أنه يسمع ثانية صوت ناكر ونكير وهما يناديان عليه بالتعاقب دون أن يسمحا له بإغلاق عينيه والهدوء . ثم فجأة لمح **شلبي** وهو مقبل عليه والمفاتيح والفانوس في يده ويدعوه للذهاب معه ، فانضم إليه رغماً عنه وتحركا في صمت — وهما يحلقان آنا ويخطوان آنا آخر — في طرق غير مألوفة تذكرها من أحد الأماكن وكأنه في المنام . ومن العجيب أن كل مكان مر به يسوده سكون مرعب وخراب ، ولم يلتقيا بأي مخلوق ، وكالسحاب السابح كانا يمران فوق المدن الكبيرة والصغيرة والقرى ، ونفس الحال يسود في كل

مكان : سكون مميت ، ومرا هكذا فوق اسطنبول التي مر عليها في حين من الأحيان — منذ فترة طويلة — عندما كان يذهب إلى الحج . ومدينة اسطنبول مهجورة أيضاً ولا يوجد أحد في أي مكان أو في الأزقة أوالميادين ، وترتفع الأهلة فحسب على المآذن صوب السماء وتكاد تلمسها .

وسأله في جذع :

— **يا شلبي** ، أين الناس ؟

— ناموا .

— و السلطان ؟

— هس ، إنه ينام!

— ورجال البلاط والولاة ؟

— كلهم نيام ..

واستولى عليه أكثر الخوف والضيق من ذلك السكون العجيب والخراب . ولما مرا فوق المقابر لوح لهما أحد الأشخاص من عل ، لوح لهما بشيء أبيض يشبه الكفن ، رغم أنه لم يكن يرى الشخص الذي لوح لهما .

وهمس في خوف :

— **يا شلبي** ، إلى أين تقودني ؟

وتوقف وتصبب منه العرق البارد .

وعندئذ أصدر **شلبي** رنيناً بالمفاتيح ثم ابتسم في خبث واختفى وكذلك الفانوس وحينئذ فحسب تملكه الخوف ، ولم يعرف إلى أين يذهب أو ماذا يفعل ، والظلام سائد فلا يرى أصبعه أمام عينيه ، والصمت عسير وساكن وكأن كل شيء قد تلاشى في باطن الأرض .

وفي ذلك الحين ظهر **طوبال خوجه** وهو بشوش ومبتسم كما رآه أول مرة ، ويسير ويسير والفانوس في يده ، وما أن لمحه **إلهامي** حتى خرج من الظلام إلى النور وهرول إليه وعانقه

وسأله **طوبال خوجه** بقوله :

ــ ماذا بك ، لماذا ترتعد ؟

وهمس **إلهامي** وهو يزداد التصاقاً **بطوبال خوجه** قائلاً :

ــ لقد ضللت الطريق فلا أعلم إلى أين أذهب ... **شلبي** أخذ الفانوس وتركني بمفردي في الظلام ، ولا يوجد أي مخلوق في أي مكان وكأن كل شيء قد هلك ، ولو تطلق ... على الأقل ــ البومة صوتاً ... ولا زلت تسألني ماذا بي ولماذا أخاف ..

ووجه **طوبال خوجه** اللوم إليه قائلاً :

ــ بالله عليك يا أستاذ ، ماذا تقول الليلة ؟ أنظر أية نجوم تتلألأ في السماء ، أتريد أن تقول إنها هي أيضاً تنام ؟ وهل ينام في أي وقت من الأوقات ربك الذي يعلو فوق كل هذا ؟ إنه يرى النملة السوداء على الحجر الأسود في الليل الحالك فكيف لا يرى ذلك الشخص الذي يبجله ويسجد له ، بالله عليك يا أستاذ ، ماذا حدث لإيمانك ؟

وتملكه الخجل وأطرق عينيه و لم يعد ينظر إلى **طوبال خوجه** . وأسوأ شيء بالنسبة له أن **طوبال خوجه** يكرر ما كان طوال حياته يقوله . والآن فجأة !... وهمس في خوف :

ــ ربي ، ماهذا الذي يحدث لي ؟

واستطرد **طوبال خوجه** قائلاً :

ــ وبماذا سيفيدك على الإطلاق **شلبي** وفانوسه ما دمت تملك بصرك ؟

وأسند **طوبال خوجه** راحة يده على قلبه الذي يدق ويدق ، وعاد **إلهامي** يقول :

ــ ولكن لا يوجد ناس ، وهذا هو أكثر مايخيفني .

ــ إنهم ينامون يا أستاذ . لقد تعبوا من فعل الخير وارتكاب الشر طوال اليوم ، فناموا من الارهاق . وهذا هو حالهم على الدوام ، وعندما يستيقظون في الصباح سيستأنفون أعمالهم حيث توقفوا بالأمس . هذا هو حال البشر . الشر والحال المخالف .

والبك المسن يعاني في المنام وأخذ يحرك لسانه ويصدر أمراً لأحد الأشخاص قائلاً :« اذبحوا ديكا و ... ثم ضعوه بعد ذلك على الرز .. **يا هناء** ، أتسمعينني ، اذبحي ديكا ! » ثم سعل واستيقظ وجلس على السرير وأخذ يتنهد في نحيب .

واستيقظ **إلهامي** أيضاً ونظر في ارتباك حوله إلى أن أدرك أين هو .

وأحس بضيق أكثر مما كان عليه منذ قليل ، وتصبب منه العرق .

□ □ كانت الشمعة الموجودة بالفانوس قد انطفأت ، والضوء يتغلغل بشكل غير واضح عبر الفتحة الموجودة بحائط الزنزانة ، وحينذاك سُمِعتْ من مكان بعيد أصوات آذان الفجر ، وكانت الأصوات نقية ورقيقة ومرتجفة، وسمع الآذان أيضاً من مسجد القلعة ، وانطلق الآذان قوياً رناناً خلال الفجر .

وتحدث رامو قائلاً :

ــ أوه ، هل هذا هو الفجر ؟

ونهض وأخذ يحك جلده ويتثاءب وقال :

ــ أيها الأخوة ، لقد حلمت بأشياء كثيرة ، وعلاوة على ذلك كنت في خيمتنا ، وإذا بجلبهار هناك قد أنجب لي ولداً . وسألتها ، من أين هذا ...

ودمدم قاطع الطرق ــ وكأنه كان ينتظر ذلك فحسب ــ قائلاً :

ــ اسكت يا ابن ..

إنه الفجر يا أخي ، انظر إليه . سيفتح الآن شلبي . لابد من الخروج ، ولابد من حمل الدلو وملء الإناء والذهاب إلى المرحاض وينبغي ... آخ ! الأمر يسير بالنسبة لك فأنت لا تنهض ، أنت فقط ، تقول : أعطني الإناء ! والله كأنك باشا !

وتملك الارتباك الجميع واستقبلوا اليوم الجديد بمرارة ، ولم ينظر أحد إلى أي أحد .

وصاح البك المسن قائلاً :

ــ لا تنس أن تصب الماء ! إملأ الإناءين ، أتسمع !

ــ اسمع أيها البك ، اسمع ، ولكن لا تنس أن تذهب إلى المرحاض حتى لا يحدث بعد ذلك أن ... وجهز شيئاً من أجل شلبي .

وزمجر قاطع الطرق قائلاً :

ــ أف ، لو استطعت ! أن أبصق عليه فقط !

ـــ هيه ، لو استطعت ! لو منح الله العنزة ذيلاً طويلاً لضربت العالم كله !
وقال **إلهامي** في توسل :
ـــ أيها الأخوة ، هل بإمكانكم التحدث عن ذلك وأنتم في هذه الحال !
ـــ ما دام لا يغلق فمه ، أهلكه الله .
ـــ فيم يضايقك كلامي يا أخي ؟ سد أذنيك إذا كنت لا تستطيع أن تسمع ، يا لَلعَجَب !..
وبدأ **إلهامي** يهدئه بقوله :
ـــ اصبر يا أخي ، اصبر . لابد من الصبر في الأمور الكبيرة ، ناهيك عن الأمور الأخرى . لم يذكر عبثاً أن الجنة مفروشة بالصبر . إنك ترى أنه يحب الكلام ، فليتكلم ..
ـــ صاحبك اللص هذا سريع الغضب !.. كلما فتحت فمي يهاجمني . ألا يمكن أن يكون الأمر على هذا النحو ! هنا لا يسأل هو ، بل **شلبي** ، وذلك الرئيس : **جلال باشا** ! هذا ما ينبغي أن يعرفه ... وأرى أنك رجل طيب ، شكراً لك ، لو كان الجميع مثلك ! .
وصلصل المفتاح في القفل وظهر **شلبي** على الباب .
ـــ هيا ، خروج !
وأمسك **إلهامي** أولاً بالدلو ، وقفز **رامو** وأخذه من يده قائلاً :
ـــ أبداً ، أنا سآخذ الدلو ، وأنت يمكنك أن تأخذ الأواني .
وهمس البك :
ـــ ليكن يا أستاذ ، لا تأخذها ، أعطها لي ..
وأخذ منه الأواني . وحينما مرا بجانب **شلبي** أخذ **رامو** يتملقه قائلاً :
ـــ يا **شلبي** ، أطال الله عمرك ، لا تدفعنا ولا تستعجلنا ، وهبك الله . البك بحالته هذه يسير بالكاد . فإذا صحت أيضاً فسينتهي ... وقلت له أن حقك معروف .
وسعل **شلبي** سعالاً رَبْوياً وقال بالكاد بصوت كالأنين :
ـــ هيا .. لم أسألك عن شيء ! ..
وأضاء الصباح بنوره . وتوقف **إلهامي** على باب الزنزانة وغطى عينيه براحة يديه .

وللحظة أصابته الشمس بالعمى . وبدا له أنه خرج من قبر خرب حافل بالظلام والآلام فتمنى أن يستكن إلى الأبد هنا في ظل الشمس والندى .

ــ هيا يابك ، اسرع !

هكذا أخذ **رامو** يدفع البك المسن للإسراع وهو لا يقوده وإنما يجره جراً ، وركبتاه ترتعشان وتتشابكان وكأنهما من القماش ، وأمسك به **إلهامي** من الناحية الأخرى قائلاً :

ــ ببطء على مهلك فقط ...

ولم يكن **شلبي** يتعجلهم ، فقد تركهم يشطفون الدلو ويغسلوه ويغتسلون ويملأون الأواني ، بل وأن يتمددوا في الشمس ، وأفلح **إلهامي** في أن يتوضأ أيضاً . وقبل أن يتعجلهم فتح **شلبي** زنزانة أخرى وتدفق الناس واحداً تلو الآخر وكأنهم يطلعون من حفرة ، وعددهم يبلغ حوالي خمسة عشرة إن لم يكن أكثر ، وكلهم ثابطي الهمة وفي حالة إهمال . وصاح واحد من بينهم بصوت خافت :

ــ ها هو **إلهامي** .. يا للمصيبة الكبيرة ، أهو أيضاً !

وصاح **شلبي** وهو يقترب من الباب :

ــ هيا ادخلوا ، كفاكم . هيا ، ماذا تنتظرون !..

ودخلوا في صمت وجلسوا وهم لا يزالون تحت تأثير الشمس والصباح اللذين خلفوهما وراءهم . ومن الخارج يسمع صوت **شلبي** وهو يصيح على أحد الأشخاص .

وقال **رامو** وهو يسب :

ــ هيا ، هلكت !

واقترب **إلهامي** من قاطع الطريق الذي كان يرقد على ظهره وينظر إلى أعلى بعين نصف مغمضة ، وقال له :

ــ هل تريد أن أغسل لك وجهك ؟

ــ لا ، لا تفعل ..

ــ أتحتاج إلى أي شيء آخر ؟

ــ لا أحتاج إلى أي شيء ، شكراً لك ..

ـــ يا بك ، ما رأيك في أن نتناول شيئا ، هيه ؟ قبل أن يفسد الطعام .

وأشار رامو بعينيه إلى الحقيبة .

ـــ خذ ما استطعت . تفضلوا إذا كان هناك من يريد .

و لم يتحرك أي أحد . وفتح رامو الحقيبة وبدأ يخرج الطعام . ونهض إلهامي يصلي وأخرج من حقيبته قميصاً نظيفاً وبسطه على الأرض ونوى الصلاة .

□ □ □

□□ ومرت ساعة كاملة وأكثر ولم ينطق أحد بأية كلمة وكل شخص منشغل بنفسه ، وبعد أن أخذ **رامو** من الحقيبة أشياء كثيرة رقد ثانية واستغرق في النوم . ولم يُسمع أي صوت من الاثنين الآخرين .

وبعد الصلاة جلس **إلهامي** وأخذ يقرأ القرآن في سره ، وكان شارداً بعيداً عن ترافنيك وعن **الجلالي**

وفجأة انفتح الباب في أحد الأوقات وانتظر الجميع في قلق وانتظروا .

وأشار **شلبي** بأصبعه إلى **إلهامي** وقال :

ـــ إنهم ينادون عليك .

ورفع **إلهامي** رأسه ونظر وكأنه يستيقظ .

ـــ يا **إلهامي** ...

ـــ هيا جهز نفسك !

وحام الخوف على الزنزانة وكأنه خفاش ، وتوقف شيء في حلوقهم جميعاً . ونهض **إلهامي** وهَمَّ بأن يأخذ حقيبته .

ـــ اترك هذه . ستذهب إلى القصر ، جهز نفسك وانتظر .

وخرج **شلبي** وأغلق الباب ، ونظر الجميع في صمت إلى **إلهامي** . وفغر **رامو** فاهُ وقال :

ـــ لا أعلم ماذا ستفعل هناك ، لأنه هناك بقدر ما أعرف ..

ولم يكمل كلامه . واستولى هدوء بارد على **إلهامي** ثم جلس وأطرق وأغلق عينيه .

ومرت فترة من الوقت إلى أن انفتح الباب ثانية .

ـــ هيا يا أنت ، هل أخذت عدتك ؟

ونهض **إلهامي** وانتعل حذاءه وأخذ العصا ، وهمس قائلاً :

ـــ وداعا أيها الأخوة ... واغفروا لي إذا لم أعد .

وابتسم **إلهامي** في حزن ، وقال الباك ـــ وهو يشعر بغصة في حلقه ـــ :

ـــ هيا بالتوفيق ... وستعود إن شاء الله ...

ونهض **رامو** وأخذ يواسي **إلهامي** وهو يسير في أثره قائلاً :

ـــ لا تخش شيئاً فهناك لا يقتلون أحداً ولن يقتلوك ...

وقال قاطع الطرق ـــ وهو يتنفس بصعوبة ويحاول بمشقة أن ينهض ـــ :

ـــ يا أستاذ ، أستحلفك بدينك وإيمانك ، قل لهم كل ما في قلبك ! لا تبق مديناً لهم بالله عليك ! وليروا أنك لست خائفاً وأنك لا تخشاهم .

وتوقف **إلهامي** . استدار ولكنه لم يقل شيئاً بل ربت عليه ببصره .

وقال **شلبي** مهدداً :

ـــ ثرثر ، ثرثر ، ولكنك لن تستمر طويلاً !

ـــ أعلم هذا بدونك ، أيها المريض بالفتاق والربو . وقل لواليك هذا بكل صراحة ما يلي : إنني لا أعترف به ولا أخشاه ولا حتى مثل **جوادي الكميث** ، أتسمع أيها الخادم !

وقال **شلبي** ـــ بصوت كالفحيح وهو يلوح بالمفاتيح ـــ :

ـــ انتظر يا ابن الكلب ، ستدفع لي ثمن هذا ، بالتأكيد ستدفع لي .

□ □ □

□ □ وتولى حارس القصر اقتياد **إلهامي** عند خروجه من القلعة . وسارا في نفس الطريق الذي أقتيد فيه **إلهامي** ليلة أمس . والآن في ضوء النهار وتحت أشعة الشمس كان كل شيء متغيراً . والحارس شاب شجاع لا يكترث ، ظل يغني بصوت خافت طوال مسافة هبوطهما إلى المدينة .

ورغم أن قلبه يدق دقات سريعة وأن ناراً داخلية تصعد إلى رأسه فقد كان **إلهامي** يخطو معتدل القامة دون تردد أو خوف من اللقاء الذي كان ينتظره ، وبدا له أنه تنظر إليه باستمرار وتتابعه تلك العين الجاحظة الدامية لرئيس قُطاّع الطرق ، وأنه لا يزال يسمع صوته الأبح المتكبر الذي كان يحدث به **شلبي** قائلاً : قل لواليك هذا بكل صراحة إنني لا أعترف به ولا أخشاه ولا حتى مثل **جوادي الكميث** ، أتسمع أيها الخادم !

وتوقف **إلهامي** أمام أول قبر مرًّا به ، وتوقف الحارس أيضاً وسأل :

ــ ماذا الآن ؟

فقال له **إلهامي** ــ بصوت خافت ــ:

ــ أقرأ الفاتحة .

ــ هل لابد من قراءتها ؟

ــ لابد يابني . أنت تُسَرِّي عن نفسك بالغناء ، والفاتحة تبهج أرواح الأموات . من الجميل أن يتذكرهم المرء وسنسعد حينما يتذكرنا أي إنسان ...

وسعل الحارس لم يقل شيئاً ورفع **إلهامي** يديه وبدأ يقرأ الفاتحة . وبالنسبة له كان الأموات الآن أقرب بكثير من الاحياء ، ولما أنهى قراءة الفاتحة ودعائها تحرك والحارس وراءه ، ولم يعد يغني .

وكان المارة الذين يلتقون بهم يحذرون منهما كما حدث بالأمس ، ويتظاهرون بأنهم لا يرونهما ، بل وحتى الغلمان الذين يلعبون في الأزقة ، بمجرد أن يروهما يتوقفون عن

اللعب ويلتصقون بجانب الجدران ويتهامسون .

وفكر **إلهامي** في حزن قائلاً :

ـــ ياه ، لماذا يشرع الجميع في إدارة رؤوسهم عن المرء وهو في أشد حالات الضيق ؟

ثم تذكر **حمزة أغا وطوبال خوجه** فامتلأ قلبه بالسرور وسرعان ما صحح خطأه قائلاً :

ـــ ولكن هاهو ، ليس كل البشر سواء ...

وحينما وصلا إلى القصر استقبلهما الحراس ، وقال أحد الحراس في دهشة :

ـــ فيم الاستعجال أيها المؤمن ؟

ـــ قيل لي إنه لابد من الإسراع .

ـــ لقد حضرت بسرعة قسماً بديني !

واستوقف الحارس **إلهامي** عند الفناء بقوله :

ـــ انتظر هنا ولا تتحرك .

ودخل الحارس القصر وظل **إلهامي** عند الفناء

□ □ □

□ □ وكان الفناء ــ كعهده على الدوام ــ يعيش حياته المألوفة ، فرجال الوالي يتحركون داخلين القصر آنا أو يتحركون عبر البوابة إلى الجهة الأخرى من الفناء التي يتم منها الدخول إلى حديقة ذات شجيرات ، وذكور اليمام تهدل بصوت عال وراء الإناث ، والنحل يصدر طنيناً ويهوي على الورود المزدهرة ، والنسيم يحمل من أحد الأماكن ، من المطبخ الواقع في الطرف الآخر للقصر ، الروائح الساخنة للأطعمة المطهوة ، وتوجد هناك قطة بدينة تغفو وسط شجيرات البقس ، وفي بعض الأحيان فحسب تنظر صوب اليمام الذي يحلق حولها في حذر .

وتوقف **إلهامي** وانتظر وكلما مضى الوقت كلما زحف الإحساس بالحزن والعزلة إلى نفسه أكثر فأكثر وبدا لنفسه وكأنه عديم الفائدة وقد نسيه الجميع ، وكأنه شيء ميت مهجور ، واستولى عليه الضيق ، وفجأة أحس بجفاف في حلقه وكاد أن يرتوي بالماء من النافورة ولكنه تذكر في اللحظة الأخيرة أنه صائم فلام نفسه بنفسه على أنه استطاع أن ينسى صومه إلى هذا الحد الكبير .

وفكر في خوف :

ــ إن الشيطان يضايقني مرة ثانية ويختبرني حتى يخيفني ويحيد بي عن طريقي .

وأخذ يتلو بصوت عال :

ــ « أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضروا ... »

وعاد الحارس ونادى عليه ، فابتلع ريقه وشمر أكمام جبته وصعد درجتين أو ثلاث درجات من السلم الذي يتم عن طريقه الدخول إلى القصر .

واستقبله النسيم اللطيف في الردهة ، وظل الفناء الذي تسطع عليه الشمس واقعاً في الجانب الآخر من المدخل ، ومن الردهة تُرى القطة وهي تغفو في عدم اكتراث بين

الشجيرات . ويُسمع حديث خافت بأعلى درجات السلم المغطاة بالقطيفة الحمراء وعبرها كان يتم الدخول إلى حجرة الديوان ، ولكن لم يظهر ولم يهبط أحد . وحينما يمر أحد الأشخاص بالردهة فإنه يعبرها دون أن يحدث صوتاً تقريباً ، ويتم الحديث همساً ، وتسمر الحارس ولم يتحرك ، والوقت يمضي في بطء ومشقة .

وأصدر الباب الواقع على الجانب الأيمن صريراً . وظهر سليمان أفندي ياور القصر واتجه صوب الهامي وفحصه بنظرة حادة وأشار إلى العصا قائلاً :

ــ اترك هذه واخلع نعليك !

وانحنى إلهامي وخلع نعليه في صمت ووضعهما بجانب الجدار وأسند عصاه بجوارهما .

وتنحنح سليمان أفندي وبدأ وهو يشدد على كل كلمة ، يرشده إلى كيفية التصرف عند الدخول والمثول أمام الوالي ، وخلال هذا كان على الدوام يهدد بسبابته قائلاً :

ــ انصت لي جيداً ! حينما تَمثُل أمام جناب الوالي ستلقي السلام أولاً وتقبل يده ، ثم تضع يديك على صدرك وتبتعد إلى الوراء عدة خطوات ولا تدر ظهرك . ثم قف واخفض بصرك إلى الأرض وانتظر إلى أن يسألك ، وأجب فحسب عما تسأل عنه فحسب ، أفهمت ؟

ــ فهمت ...

ونظر إليه سليمان أفندي مرة أخرى نظرة فاحصة وكأنه يفكر فيما إذا كان قد نسي شيئاً .

ــ والآن هيا في إثري !

وأغمض إلهامي عينيه وتنهد وهمس بسم الله وتحرك . واشتدت ضربات قلبه وأحس بانقباض في حلقه ، وأخذ يتضرع من أعماق قلبه قائلاً :

ــ رب ، لا تتركني وحدي ولا تسمح له بأن يكون أقوى مني !

□□□

□□ ولم يكن هناك أحد في الحجرة التي دخلاها .

ــ قف هنا وانتظر .

وفتح **سليمان أفندي** باباً آخر واختفى وراءه في هدوء ، وظل **إلهامي** ثانية وحيداً .

وكانت الحجرة حافلة بالسكون المميت والوحدة ، وهذه الحجرة مكان من تلك الأماكن الكئيبة الذي يجلس فيه الناس في صمت وهم ينتظرون بالكاد أن يتركوها ، انها حجرة لا يحدث فيها أبداً أي شيء فيما عدا الأفكار القلقة والآمال غير الأكيدة لأولئك الذين يأتون إلى هنا وينتظرون .

وكأن الوقت لا يمضي والانتظار مستمر بشكل يثير الملل . وتوجد ذبابة سوداء ضخمة ، كثيفة الشعر كالعنكبوت ، تحوم باستمرار وتصطدم بزجاج النافذة رغبة منها في الخروج ، وفي هذه الأثناء كانت تصدر طنيناً بلا انقطاع بحيث تهيأ **لإلهامي** أنها تنوح من اليأس .

واقترب من النافذة وواربها قائلاً :

ــ هيا ، هيا إلى الشمس ... إذا كنتُ أنا مجبرا على ذلك ، فأنت لست مجبرة ..

وابتعدت الذبابة عن زجاج النافذة وأصدرت طنينها ثم خرجت .

وشعر بغصة في حلقه وفجأة انفجر في البكاء .

ودخل **سليمان أفندي** ، وقد فتح الباب دون أن يصدر صوتاً واقترب منه وابتسم في خنوع وهمهم وهز رأسه قائلاً :

ــ فات الأوان الآن !كان ينبغي أن تفكر في ذلك من قبل !

وتنهد **إلهامي** ومسح دموعه بظهر يده ، وأخذ **سليمان أفندي** يكرر عليه بصوت عال قائلاً :

ــ قلت لك كيف ستتصرف ! أولاً ستُلقي السلام ثم تقبيل اليد ، وبعد ذلك تبتعد

ولكن لا تدر ظهرك وانظر أمامك وَضَعْ يديك ...

وأنصت **إلهامي** له ولكنه لم يسمعه ولم يره ، وكان يتلو في سره كلمات الدرس الخاص بما ينبغي عمله عند الموت : حينما يأتيانك الملكان اللذان يتمتعان بالقرب من الله جل شأنه واللذان يحملان لك الخبر السعيد من الله الرحيم ، فلا تخف ولا تحزن أمامهما بل أجب بوضوح وجلاء .

وسأل نفسه :

ــ من هو **الجلالي** حتى أخشاه ؟ إنه ميت وزائل كجميع الناس ، إنه ورقة في مهب المريح ، ونقطة ندى تحت أشعة الشمس ، الله وحده هو الخالد .

وقال له **سليمان أفندي** بحدة :

ــ كأنك لا تنصت لما أقول !

ــ فأجاب بصوت يكاد يُسمع :

ــ سمعت كل شيء ، وأعرف كل شيء .

ــ إذن هيا معي وكن حذراً في تصرفاتك .

وسار وكأنه في حلم إلى أن وطأت أقدامه السجادة الفاخرة الناعمة . وتهيأ له فجأة وكأنه يرى العين الجاحظة لرئيس قطاع الطرق ويسمع صوته العنيد المتقطع وهو يقول :

ــ وقل لواليك هذا بصراحة ..

وسمع الهمس الحاد **لسليمان أفندي** وهو يقول :

ــ السلام ، السلام ، ... وتقبيل اليد .

□ □ □

□ □ وانتبه **إلهامي** ورفع بصره وكاد يتراجع من هول المفاجأة ، فقد كان **الجلالي** ينظر إليه بابتسامة فضولية في عينيه ، ولم يكن على الإطلاق مشابهاً للصورة التي تخيله بها . وكان جالساً على أريكة عالية وهو يداعب بأطراف أصابعه لحيته السوداء المستديرة ، وعيناه خضراوان وبهما قليل من القتامة وتتناقضان مع لحيته السوداء . وتظهر بعض الأنوثة تقريباً على البشرة النقية الناعمة لوجهه وعلى يده الممتلئة والمتناسقة تناسقاً جميلاً ،ولا يمكن القول بأنه مسن أو بأنه شاب بدرجة كافية ، والخط الحاد المبتور بشكل رأسي فوق عينيه يقول بوضوح بأنه يعرف ما يريد وكيف يحقق ذلك ، وكانت الحجرة الواسعة مفروشة بأثاث ثري وحافلة بالظلال اللطيفة ومعطرة بعطر ذكي هبت نسائمه على **إلهامي** .

واستمر **الجلالي** ينظر إليه ويبتسم .

وفكر **إلهامي** وهو يتذكر **طوبال خوجه** ـــ قائلاً :

ـــ من المؤكد أنه يضحك بسبب الجبة .

ووصل إلى مسامعه الهمس الحاد **لسليمان أفندي** وهو يقول .

ـــ السلام ... وتقبيل اليد !

فوضع يده على قلبه وأحنى رأسه قائلاً :

ـــ السلام عليكم !

وكان صوته هادئاً ووديعاً كعهده على الدوام عندما يخاطب الناس .

وأجاب **الجلالي** وكأنه مندهش قائلاً :

ـــ عليكم السلام !

وكأنه متعجب من أن **إلهامي** لم يقبل يده رغم أن **سليمان أفندي** يتنحنح مقاطعاً .

وساد السكون ، وتكلم **الجلالي** وهو يداعب لحيته باستمرار قائلاً :

ـــ ماذا ... ؟

وكان يتحدث باللغة التركية وصوته لطيف غير غاضب .

ـــ هاأنذا جئت .. قيل لي أن أحضر فتوجهت وأتيت .

فقال الجلالي مشدداً نبراته :

ـــ أرى ذلك .

وأشار بيده إلى الوسادة التي كانت موضوعة أسفل الأريكة قائلاً :

ـــ اجلس .

ورفع إلهامي الجبة وجلس ببطء .

ونظر الجلالي إلى سليمان أفندي وأعطاه إشارة برأسه فابتعد الياور بلا صوت ، واستند الجلالي على الوسائد وقال :

ـــ سمعت أنك إمام وخطيب في جيبتشه

ـــ أجل ، فى مسجد فرهار باشا .

ـــ وكيف حالك في جيبتشه ؟

ـــ الحمد لله ، كانت أحوالي طيبة .

ـــ سمعت أنك شاعر أيضاً ، ودرويش ..

ـــ إذن كان يمكنك القول بأنني شاعر .. والطريقة الصوفية في قلبي .

وقال الجلالي بصوت أكثر خفوتاً :

ـــ وأنا أيضاً كنت شاعراً .. ولكني لم أعد كذلك فليس لدى وقت ، وعلى الأخص منذ أن جئت إلى هنا ، إلى البوسنة .

ـــ أعرف أيها الوالي .

وانتعش الجلالي وقال :

ـــ أسمعت ؟ وماذا سمعت أيضاً ؟

ـــ أنك حافظ للقرآن أيضاً .

وفجأة تملك الجد الجلالي ، ونظر لحظة أو لحظتين إلى فص الزمرد الضخم الموجود على خاتمه وكأنه يراه لأول مرة ، ثم رفع بصره وكانت الابتسامة قد اختفت من عينيه .

ــ أجل ، إنني أيضا حافظ للقرآن . ولكنني للأسف أغفلت هذا أيضاً .. إلا أنني أردت أن أقول لك إن قصائدي مختلفة عن قصائدك .

وأحس **إلهامي** بوخز السهم الملقى فانتظر حتى يكمل **الجلالي** كلامه :

ــ كنت في قصائدي أمجد الإمبراطورية ومولانا السلطان المعظم .

ونظر إليه **إلهامي** مباشرة في عينيه وقال :

ــ لابد من مدح كل ما هو عظيم وجميل .

ــ أهذا هو رأيك ؟

ــ هذا هو رأيي أيها الوالي .

وسأله **الجلالي** في صوت يكاد يكون همساً قائلاً :

ــ وهل الإمبراطورية ومولانا السلطان المعظم ليسا عظيمين ولا يستحقان كل مديح ؟

وفي هذه الأثناء كان ينظر إلى **إلهامي** محدقا وعندئذ دمعت عيناه وأصبحتا شبه قاتمتين .

وتحمل نظرته وقال في طمأنينة :

ــ إن الإمبراطورية مثل البحر ، مديدة وشاسعة بحيث لايمكن رؤية نهايتها ، والماء صاف في منبعه . ولكن إلى أن يصل إلى أولئك الذين ينتظرونه في عطش فلا يمكن في بعض الأحيان غسل الأقدام فيه .

واستغرق **الجلالي** في التفكير للحظة وكأنه يفكر في المعنى الذي أراد **إلهامي** أن يقوله بهذا الكلام .

ــ تقول كلاماً غريباً أيها الدرويش ! هل ربما تعتقد أنك موجود في التكية وأنني أنا **جلال الدين علي** باشا مريدك المطيع الذي ينبغي أن يعجب بحكمتك ؟... لا يأخذنك الحماس بل أجب بوضوح وجلاء دون اللجوء إلى حيل الدراويش هذه !

وتململ **إلهامي** في مكانه على الوسادة وقال :

ــ من أجل هذا جئت إلى هنا أيها الوالي . لقد سرت مسافة طويلة وفكرت لفترة أطول في كل شيء ...

ـــ وكان لديك ماتفكر فيه . هيا اسمعني قصيدتك تلك « حل زمان غريب » التي من أجلها استدعيتك إلى ترافنيك . أريد أن أسمعها من فيك .

وتملك الخوف إلهامي .

ـــ هيا أسمعني !

وأطرق وأغلق عينيه وصمت قليلاً ثم بدأ يتلو القصيدة وكان صوته يرن رنيناً مزلزلاً :

حل زمان غريب
وأصبح كل شيء شراً
ماذا نتوقع بالله عليكم ؟

لقد تلاشت الطاقة
وأصبح كل شيء سيئاً لنا
واختفى الناس الطيبون
ماذا نود بالله عليكم ؟

ليس هناك عمل للتركي
فقد طمس الظلم العدل
وأبيدت العدالة

ـــ توقف ، انتظر ، إنني لا أفهم لغتك هذه . تحدث باللغة التركية ، ولو على الأقل بلغتكم تلك البوسنوية التركية المثيرة للضحك مادمت لم تتمكن طوال كل هذا الوقت من تعلمها .

ـــ أيها الوالي ، لغة كل إنسان هي الأعز والأعذب لديه ، ولغتنا كذلك بالنسبة لنا .

ـــ أهكذا ؟ ولذا فقد أنشدت قصيدتك بها . أكمل لكي أسمع !

ـــ رب ، إلى أي مدى يكون هذا الرجل شريراً ؟ وأنا تعشمت في الوهلة الأولى ...

وابتسم الجلالي في برود وقال :

ـــ ماذا ، ماذا تنتظر ؟ ألا تعرف اللغة التركية ؟ كنت منذ قليل تتحدث بها !

ـــ أعرف يا باشا ، ولكن القصيدة شيء آخر .. أنت أفضل من يعرف هذا .

ـــ تقول القصيدة ؟ لا توجه إهانة للقصيدة يا درويش ! تكلم لكي أسمع كلماتها ! أريد أن تقول لي فيم فكرت وماذا أردت أن تقول من خلال أبياتها . هذا هو ما أريده !

وقال إلهامي في صلابة :

ـــ فيم فكرت ؟.. فكرت في الشر يا باشا فكرت في الشر والبلاء يا باشا .

ـــ أي شر وأي بلاء ؟

ـــ مصيبتنا نحن ، وليست مصيبة غيرنا ، كل هذا الذي يسحقنا ويضنينا منذ فترة طويلة ! لقد أنهكتنا الحروب وضاع ويضيع فيها كثير من أبنائنا ، والأوبئة تهلكنا والجهالة تسود ، وأبيدت العدالة والفقر يطحن فظهرت التمردات وأعمال قطع الطرق ، بينما يزدهر الطغيان والارتشاء وسوء الأخلاق . أما أولئك الذين ينبغي أن يكونوا في المقدمة وأن يحددوا ماهية العدالة ويوزعوها بدءاً من رجال الإمبراطور والأعيان وانتهاءً بالعلماء ، فهم يتحدثون بشيء ويفعلون شيئاً مغايراً ، وهم يفكرون في أنفسهم فحسب وكل منهم يسرع صوب وجهته . وتحولت البوسنة كلها إلى جرحْ . ما هذا الذي يجري وماذا سيحدث لنا !

وبينما كان إلهامي يتحدث نهض على ركبتيه ومد يديه واغرورقت عيناه بالدموع . ولما أنهى كلامه هوى وكأنه منهمك وأطرق .

وهدأ الجلالي أيضاً فهو صامت وينظر ، ثم تنحنح وقال :

ـــ هل ثرت بقصيدتك ضد كل هذا ؟

ـــ لقد ثرت بقلبي يا باشا ، بقلبي ، وهو موجود في القصيدة .

ـــ أتريد بهذا أن تقول إنك لم تثر ضد الإمبراطورية وضد السلطان والخليفة الذي يتحتم عليك كمسلم أن تذعن له ؟

ـــ لقد ثرت ضد الشر الذي يسحقنا . وليس من الحتم عليّ أن أذعن للظلم مهما كان مصدره ، بل عليّ أن أكافحه .

وابتسم الجلالي في سخرية قائلاً :

ـــ بماذا ؟ بالقصيدة ؟

ـــ لا أحبذ السيف . والقصيدة هي سيفي .

وشبك **الجلالي** يديه ولم ينزع عينيه عن **إلهامي** ، وتأمل كل ملمح في وجهه وتأمل يديه النحيلتين المنهكتين الموضوعتين على ركبتيه . وبدا كأنه يستمع إلى دقات قلب **إلهامي** وإلى أنفاسه التي يتنفسها . ثم تنحنح وخاطبه لأول مرة باسمه ، وتكلم برفق قائلاً :

ـــ يا **إلهامي** ،اسمعني جيداً . الإمبراطورية والسلطان بالنسبة لي فوق كل شيء ، فيما عدا الله . ومنذ فترة طويلة والأمر ليس يسيراً بالنسبة للإمبراطورية . فالأعداء ينقضون عليها من جميع النواحي . وبالفعل اقتطعوا منها القطعة الأولى ويريدون أن يمزقوها . وليس الحال بأفضل هنا في البوسنة التي كانت في حين من الأحيان بستان الإمبراطورية . الأعيان والضباط رفعوا رؤوسهم وكل منهم يريد أن يكون والى نفسه . ولا يعلمون ، اللهم زد همومهم ، إنهم بدون الإمبراطورية لا يساوون شيئاً على الإطلاق . إنها قوتهم وأجنحتهم . ولذا جئت إلى هنا لكي أشدد عليهم وأفرض النظام في البوسنة وأخضعها وأنفذ الأوامر المفيدة التي أصدرها السلطان والتي يزمجرون منها ويثورون ضدها . أن رؤوسهم البوسنوية الصلبة لم ولن تستطيع أن تدرك أنه في الوقت الحالي تهب رياح جديدة ، وأن الإمبراطورية لابد أن تمضي في دروب جديدة إذا أرادت أن تستمر في البقاء . ولذا أتيت إلى هنا لكي أرد لهم عقولهم وأخضعهم وأريد أن أشد أطراف البوسنة وأدعمها بعد أن اهتزت من أساسها .

وتوقف **الجلالي** لحظة ثم صوب أصبعه نحو **إلهامي** قائلاً :

ـــ وأنت يا **إلهامي** ، انقضضت على الإمبراطورية ! وقصيدتك الثائرة تنتقل من مدينة إلى مدينة ، ومن فم إلى فم ، وهي أشد بتراً وخطورة من كل سيف ! بالنسبة للإمبراطورية وللسلطان فأنت خطير للغاية مثل أولئك الذين جئت من أجلهم إلى هنا ! بل إنك أشد خطورة لأنك نقي ولاتطلب شيئاً لنفسك ولأن الناس يصدقوك . وقد ظننت لأول وهلة أنك متواطيء مع الأعيان والضباط الذين يحيدون بالعربة عن مسارها بثورتهم ضد اسطنبول وضد القبضة الحديدية دون أن يعلموا أنه في الغد ستطيح بهم أول رياح . والآن لما تعمقت في نفسك فأنا حزين عليك وأريد أن أساعدك .

ورفع إلهامي رأسه وفي عينيه تساؤل .

ـــ إندم يا إلهامي ! وقل ذلك جهاراً وبياناً بحيث يسمعك الجميع ! قم بسحق القصيدة بمثلها انكرها وحافظ على رأسك وإلا ـــ أقسم لك بالله العظيم ـــ سيتم إعدامك . سأحزن من أجل ذلك ولكن الإمبراطورية والسلطان فوق كل شيء بالنسبة لي ولا توجد هنا رحمة تجاه أي إنسان . تذكر ذلك !

وارتعش إلهامي .

ـــ هل هو هذا الشيطان اللعين يضايقني ويغويني ثانية ؟ من الذي يحدثني في هذه المرة من خلال كلمات الجلالي ؟ هل هاتان هما عينا الشيطان اللعينتان تنظران إليّ من رأس الجلالي ؟ رب احمني وامنحني القوة ولا تسمح لي بأن أتعثر !

وسأله الجلالي بلطف وود تقريباً قائلاً :

ـــ ماذا يا إلهامي ، لماذا تتردد كل هذا التردد وتتملكك الحيرة ؟ كن عاقلاً ! ألا يبهجك الاستمرار في الحياة ؟ ربما تظن أنه من السهل على المرء أن تُفصل رأسهُ عن جسده وأن ينغلق في القبر .

وأطلق إلهامي تنهيدة عميقة وحسم أمره قائلاً :

ـــ يا باشا لا تطلب مني أن أصف الشر بالخير ، والخير بالشر هذا هو أعظم ذنب ! تقول لي إن الإمبراطورية والسلطان فوق كل شيء بالنسبة لك وأنه لا يوجد خيار آخر . وأين الناس يا باشا ؟ ماذا تكون الإمبراطورية بدون طمأنينة وسعادة أتباعها ، وماذا يكون السلطان في مثل هذه الإمبراطورية ؟ يا باشا إن الناس أهم من السلطان .. من الإمبراطورية . ولن ينبت شيء طيب من الدماء . إن الإنسان هو أكمل ما خلقه الله وويل لمن يمتهنه ! وأنت تعلم ذلك يا باشا فأنت حافظ للقرآن .

ونهض الجلالي وكان يعطي انطباعاً بأنه كالسيف المسلول فقد كانت تنبجس منه البرودة لا الكراهية .

ـــ يا إلهامي ، لقد حكمت على نفسك بنفسك ، إنني حزين من أجلك . إنك أكثر نقاء وشجاعة من جميع أولئك الذين التقيت بهم هنا ، ولذا فأنا أشفق عليك ولو ترفقت بك لخدعت نفسي بنفسي ولأصبحت أنت قدوة سيئة لكثيرين ولذا فإنك لن

تفلت من الموت ...

ـــ يا باشا ، لا تشفق عليّ . إنني لا أخشى الموت لأنه لا يوجد موت . إنني أنتقل فحسب وكلي أمل وثقة في ربي . لقد سددت ديني على الأرض بقدر ما استطعت وعرفت . أنني راحل وأنا مرتاح البال لأنني كنت حزيناً أكثر من اللازم .

وبعون الله سأتخلص من كل ما عانيت من أجله هنا أشد معاناة وحزنت أشد حزن .

ومر **إلهامي** بيديه على جسده وكأنه ينزع جسده عن نفسه .

وتبادلا النظرات في صمت . وفي هدوء الحجرة الذي لم يتعكر صفوه تم سماع طائر القمري وهو يصدر هديله المطول في مكان ما بالخارج وكأنه ينادي على أحد .

ونهض **إلهامي** وقال :

ـــ يا باشا ، قبل أن أمضي أريد أن أقول لك شيئاً آخر .

ـــ فلأسمع .

ـــ كن أكثر رحمة تجاه الناس ، لأن الشخص الذي لا يملك رحمة تجاه الآخرين لا يستطيع أن يطلبها لنفسه ! والرحمة مطلوبة للجميع ... لو أنك قضيت ليلة واحدة فحسب مع أولئك التعساء بأعلى في القلعة ...

صاح **الجلالي** في حدة :

ـــ كفى !

ودوت الكلمة في أرجاء القصر . وظهر **سليمان أفندى** عند الباب وتوقف .

ـــ فليقتادوه !

وبينما كان **إلهامي** يسير عبر الحجرة كان **الجلالي** قد نهض وأخذ يتابعه ببصره ورغم أنه كان لا يفصلهما إلا بضع خطوات إلا أنه كان من غير الممكن تجاوز الهوة الموجودة بينهما .

وحينما وصل إلى الباب استدار **إلهامي** وقال :

ـــ يا باشا حينما يحضرك الموت تذكرني وتذكر كلماتي ..

واختفى وراء الباب . وكان آخر ما رآه **الجلالي** هو جبة **إلهامي** القصيرة البالية التي تسربل بها فقره وعظمته . وتهيأ أنه هائل كالجلمود .

كان **إلهامي** يتقدم مسرعاً صوب القلعة يصحبه الحارس والشمس . وكان يشعر بأنه خفيف ونقي وكأن له جناحين . وكان قلبه قد تخلص من العبء الذي كان يرهقه أياماً وليالي والذي تعثر في بعض الأحيان تحت ضغطه وبكى . لقد حمل هذا العبء إلى القصر ، وهنا أمام **الجلالي** فك كل تلك العقد التي تستعصى على الحل وتخلص من العبء وتنفس الصعداء في يسر . ولو لم يفعل ذلك لتهيأ له أنه لن يجد أبداً الهدوء والطمأنينة ، ولهرب من نفسه أيضاً .

ــ أشكرك ياربي ، أشكرك ألف مرة لأنك منحتني القوة فلم أتردد ولم أتعثر !

هكذا أخذ **إلهامي** يشكر الله بقلب كسير بينما كان نقاء الطمأنينة يفعم قلبه ونفسه .

وكان يمشي في أثره نفس ذلك الحارس الذي رافقه صباح اليوم إلى القصر وهو يتعجب متسائلاً عما يدفع الرجل المسن إلى أن يسرع صوب القلعة . وحينما أخذا يصعدان التل لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يسأله بقوله :

ــ ماذا حدث في القصر ؟

ــ كل شيء جميل والحمد لله .

ــ قد قدمت الإجابة ؟

ــ أجل ، شكرا لله .

ــ وهل خلصت نفسك ؟

ــ خلصت والحمد لله !

ــ تماماً ؟

ــ تماما . شكراً لله .

ــ والله لقد نجوت .

ــ نجوت يا بني .

ـــ لو كنت أعلم من قبل لكنت أخذت منك المكافأة .

فابتسم **إلهامي** قائلاً :

ـــ أجل وددت يا بني أن أمنحك مكافأة ولكني لا أملك شيئاً الآن ...

ـــ أنا أقول هذا الكلام هكذا فحسب .. حسن انك نجوت لأنك ترى كيف يكون الحال ...

أرى ، أرى . ولكن ستتحسن الحال إن شاء الله ، ستتحسن إن شاء الله ...

والآن ستذهب إلى منزلك ؟ أهو بعيد؟

ـــ ما هو ؟

ـــ المنزل .

ـــ المنزل ؟ إنه بعيد يابني .. بعيد .

وتنهد **إلهامي** وهو يفكر في الرحلة الطويلة المجهولة التي تنتظره .

وحينما وصلا إلى القلعة وعندما أخذه **شلبي** أحس **إلهامي** فجأة بالقلق واستولى عليه الحزن . وخشي أن يسيطر عليه ثانية عدم الاكتراث والوجل فأخذ يوجه اللوم إلى نفسه قائلاً :

ـــ آه ، ماذا بي الآن وأنا ...

وقال له **شلبي** في ضجر بعد أن فتح الباب بالمفتاح :

ـــ هيا ، ادخل !

وما أن دخل حتى توجه للقائه البك وهو يبكي . وعانقه وأخذ ينتحب .

ودار **إلهامي** ببصره في الزنزانة . وكانت أشعة الشمس تتغلغل عبر الفتحات وتتسلل من تحت الباب . ولم يكن رئيس قطاع الطرق **ورامو** موجودين . وكان البك المسن فحسب يجلس على الحاشية ويغفو .

وسأل في همس :

ـــ أين هما ؟

وتمتم البك قائلاً :

ـــ اقتادوهما ... الاثنين ...

وانفجر في البكاء . وأطرق **إلهامي** وجلس لفترة من الوقت وهو عاجز تماما وخالي الوفاض وكأن أحداً قد اقتلع قلبه وروحه . وتهيأ له أن رئيس قطاع الطرق **ورامو** ينظران إليه في صمت من أحد الأماكن .. وأن الاثنين موجودان هنا في الزنزانة ولكنه لا يراهما ، بل إن نعل **رامو** المقلوب كان موجوداً هنا على القش حيث كان يرقد . وحينما صاح البك المسن وكأنه في المنام قائلاً : « يا **رمو** ، هات الماء هنا ! » ارتجف جسده كله .

وأخذ البك يتكلم وسط الدموع قائلاً :

ــ لو كنت رأيتهما فحسب . لقد التصق **رامو** بجانب قاطع الطريق وأخذ ينوح لفترة طويلة . وأبعدوه بصعوبة عنه ... وقاطع الطريق يسبهم ويسب اسطنبول والوالي ويبصق عليهم جميعاً في الطريق ... وقد ضربوه بأرجلهم وأيديهم ... وبينما كانوا يجذبونه نحو الباب صاح بأن نبلغك السلام وأن تقرأ له شيئاً من القرآن . **ورامو** يبكي ويتوسل بلا انقطاع بأن يقودوه إلى الوالي وبأن يقولوا له إنه ليس بك ولا ...

وبدأ **إلهامي** يقرأ القرآن بصوت عالٍ . وصمت البك وهدأ . وفي بعض الأحيان فحسب كان ينتفض ويرتعد .

□ □ □

□ □ وقبيل المغرب بساعة فتح شلبي ودخل معه حارس . وأشار بيده تجاه إلهامي قائلاً :

ـــ هيا أنت هنا !

فنظر إليه ولكنه لم يتحرك ، ولم يشعر إلا بغصة في حلقه .

ـــ هيا ، أتسمع !

ومد يده لكي يمسك بالعصا وهو ينظر باستمرار إلى الحارس .

ـــ اترك هذه ، بماذا ستفيدك هذه ، هيا !

واستند بيده على الأرض ونهض ببطء ، وبدا وكأنه يستيقظ الآن ويحاول أن يعي مايحدث . ثم اعتدل بسرعة وكأنه ينمو واقترب من البك الذي كان يجلس ويرتعش .

ـــ اغفر لي يا أخي فأنا ذاهب ...

وبكى البك وأخذ يقبل يديه .

ـــ لا تحزن ولا تخف . ثق بالله فستكون أشد قوة .

ثم التفت إلى البك المسن الذي كان ينظر نظرات تخلو من التعبير ثم ابتسم في لطف .

وصاح شلبي في نفاد صبر قائلاً :

ـــ هيا ، كفى !

وعاد إلى هدوئه . وسار وهو معتدل القامة ووقور وكأنه يدخل محراب المسجد . وكان مضيئاً بالأبدية . ولما اقترب من الباب أخذ يكبر بأعلى صوته :

ـــ الله أكبر ... الله أكبر ...

ـــ ورددت جدران الزنزانة صدى التكبيرة وهرع الجميع وأفسح الحراس في صمت لكي يتركوه يمر . ومد البك يديه في إثره وحرك شفتيه دون أن يصدر صوتاً ، فقد كان صوته قد انحبس تماماً .

وبينما كان يسير في الفناء كان يقرأ القرآن بلا انقطاع . وصوته يتسلل إلى الزنزانة والمساجين ينصتون إليه كالمفتونين .

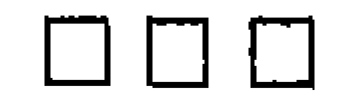
ثم خفت كل شيء . وفي أحد الأماكن شرع أحد الأشخاص في البكاء بصوت عال ..

□□□

□ □ وسرعان ما ذاع نبأ إعدام **إلهامي** وكأن جميع الرياح قد نقلته واستمع الناس إليه في خوف .

وفي اليوم التالي ظهر **طوبال خوجه** في ترافنيك . لقد جاء لكي يسأل عن قبر **إلهامي** . وأشار له حفار القبور « **دورمو** » الذي دفن **إلهامي** في تلك الليلة ـــ إلى المكان الذي دفن فيه . وجلس **طوبال خوجه** لفترة طويلة القرفصاء وأخذ يقرأ القرآن بجانب القبر الذي تم ردمه حديثا . وكان يرتدي جبة **إلهامي** التي لم يسعفه الوقت في أن يقصرها . وطواها إلى ما تحت ركبتيه وأخذ يتلو القرآن .

وبعد يومين ظهر **حمزة أغا** . وقد أتى هو الآخر لكي يسأل عن قبر **إلهامي** ، وأراد أن ينفذ الوعد الذي قطعه على نفسه . ولما وصل المسافرون من ترافنيك إلى خان **فراندوك** ونقلوا خبر إعدام **إلهامي** تسمر **حمزة أغا** وخرج في صمت من المقهى وصعد درجات السلم وهو يرتعد وأغلق الحجرة على نفسه . وأخذ كفايته من البكاء على انفراد ثم اغتسل وجهز الجواد واتجه إلى ترافنيك .



□ □ ومر عام وأكثر على إعدام **إلهامي** ، وترافنيك والبوسنة كلها لا تزال تعيش في انضباط بسبب **الجلالي** . وكان أكثر من يخافون هم أعيان البوسنة الذين لم يتمكنوا أن يقتربوا منه من أية ناحية لأنه بخلاف كثيرين كان لا يقبل الرشوة . وكان المقياس الحديدي الذي تم نصبه في أبرز مكان بسوق ترافنيك يواصل التنبيه بأن العدالة متساوية بالنسبة للجميع .

وحل الخريف على ترافنيك منذ فترة طويلة والضباب يجثم طوال اليوم على قمم جبلي فلاشيتش وفيلينيتا . وتمضي الحياة في قصر الوالي وفقاً لنظام ثابت منذ فترة طويلة . فالمرور يتم في هدوء والحديث يجري بصوت خافت وكلمة **الجلالي** هي الأولى والأخيرة . وبدا أنه لن يتغير أي شيء على الإطلاق .

ثم حدث تصدع مفاجيء كما يحدث هذا عادة في الحياة .

وفي ظهيرة أحد أيام الخريف التي لم تظهر فيها الشمس الحادة كان الناس يؤدون أعمالهم اليومية في صمت وضيق . ولم يكن لدى أي أحد استعداد للحديث ، ناهيك عن أي شيء آخر . وفي حين من الأحيان دوى فجأة في السوق صوت حامل البريد ترافقه النظرات الصامتة وسؤال لم يتم النطق به : ماذا يحمل لنا هذا وماذا أتى به ؟...

وأمسك بجواده الحراس الواقفون أمام البوابة وعلى الدوام يقف عدد منهم في هذا المكان . وتوجه حامل البريد مباشرة إلى قصر الوالي . وعلى الفور أبلغوا بوجوده وسمحوا له بالدخول عند الوالي ، وكان **سليمان أفندي** يسير أمامه .

وأستقبله **الجلالي** في نفس تلك الحجرة التي أدخل فيها **سليمان أفندي إلهامي** . ووفقاً للعادات القديمة فقد انحنى حامل البريد وقبل يد الوالي وقبل الفرمان وقدمه **للجلالي** ، ثم ابتعد ووقف بجانب الباب . وأشار له **الجلالي** بالخروج ثم صرف الياور ، فقد أراد أن يبقى بمفرده وأن يقرأ في هدوء الفرمان ويدرسه .

وفك الأختام وألقى نظرة على خاتم السلطان وبدأ يقرأ مرة ومرة ثانية وفجأة تجعدت جبهته وأغمض عينيه واستند على الوسائد وظل لفترة من الوقت لا يتحرك . لقد أصابه النبأ إصابة شديدة ، فالسلطان **محمود الثاني** الذي أرسله إلى البوسنة ومنحه توجيهات خاصة ــ عزله الآن من البوسنة .

ورغم أن كلمات الفرمان كانت منمقة وحافلة بشهادات التقدير المطرية والموجهة إلى عظمته **سيد جلال الدين علي باشا وسيف النصر** في منطقة اليونان المتمردة والسند المخلص للإمبراطورية . ولم يتم ذكر الأسباب التي عزله السلطان بسببها ولو لم يكن **الجلالي** قد اشتغل لحين من الزمن ككاتب في ديوان الباب العالي حيث بدأ صعوده . لكان من الممكن أن ينتشي بكلمات الإطراء هذه . أما والحال هكذا فقد كان يعرف أكثر من اللازم ما يكمن وراءها فبقدر ما كانت فخمة بقدر ما كانت خاوية مثل التلألؤ قصير المدى كقوس قزح .

وسأل نفسه بينما كان يتمشى في الحجرة وهو قاتم الوجه وقلق :

ــ من الذي أسقطني ؟ هل فعلها هؤلاء الاعيان البوسنويون البلهاء الخاملون ورغم ذلك فهم أريبون إلى حد كبير ، هؤلاء الأعيان الذين أفلحوا عن طريق الذهب وصلاتهم القديمة بالقسطنطينية في أن يقوضوا جذوري عند السلطان ، أم فعلها خصومي اللدودون في اسطنبول الذين يضعون لي منذ سنوات العوائق ويدبرون لي المكائد ؟

وكلا الأمرينْ على قدر متساوٍ من الاحتمال والخطورة ولذا فإن **الجلالي** أخذ يتمشى في الحجرة بسرعة أكبر وقلق أشد . وتسللت إلى نفسه أكثر فأكثر المرارة الممتزجة بالخوف . لقد خدم الإمبراطورية والسلطان في وفاء وإخلاص وهو على استعداد لأن يخوض النيران والبحار وأن يفعل كل شيء ، وأن يفعل حتى تلك الأمور التي اعترض عليها داخل نفسه ، الآن فجأة ..

وحينما ظهر على الباب ــ في لحظة ــ الياور ورئيس المالية نظر إليهما **الجلالي** شذراً وانسحب كلاهما بسرعة ودون كلام .

□□□

□ □ وكلما مضى الوقت كلما تزايدت المواجس السوداء لدى **الجلالي** . وبدأ الظلام يحل وهو لا يزال يتمشى في قلق ، وفي لحظة يتوقف ويتذكر هذا أو ذاك الحادث أو الشخصية ثم يعض سبابة يده اليسرى ويواصل ثانية سيره .

واقترب موعد صلاة العشاء وهو لم يخرج بعد من الحجرة ولم ينبس ببنت شفة . ولم يجرؤ أحد على الدخول عليه لكي يدخل الشمعدانات بالشموع الموقدة أو أن يسأله عما إذا كان في حاجة إلى أي شيء . وقد سيطر على القصر كله السكون والانتظار مع التخمين بأن الأنباء التي أتى بها حامل البريد لابد وأن تكون جسيمة ومثيرة للقلق .

وبعد العشاء بوقت طويل خرج أخيراً وتوجه إلى جناح الحريم . وهو يسير في صمت واكتئاب دون أن ينظر إلى أي أحد . وسار **سليمان أفندي** وراءه في تردد ، ولكنه — وكأنه عدل عن رأيه — توقف وعاد . ولا تزال الحيرة تحوم فوق القصر .

وفي أحد أوقات الليل سُمعت صرْخات من جناح الحريم . واشتعلت الشموع في القصر الواحدة تلو الأخرى ، واضطرب كل شيء وأيقظوا على وجه السرعة **اسحق أفندي** طبيب **الجلالي** وهو عجوز صغير الجسم ولكنه رجل نشيط من أصل يوناني وذاع الهمس بأنه ساءت حالة الوالي فجأة ..

وحدث هرج ومرج في القصر وجرى التخمين بأن شيئاً فظيعاً يحدث . واجتمع علية القوم في حجرة الوالي في الطابق الأرضي في انتظار الأخبار التي سيحملها لهم **اسحق أفندي** لأن أحداً لم يجرؤ على الدخول إلى جناح الحريم . وأطل **سليمان أفندي** عديدا من المرات في كل ركن من أركان الحجرة باحثاً عن الفرمان لأنه منذ اللحظة الأولى وهو يخمن أين تكمن الإجابة عن كل أحداث هذا اليوم . وفي هذه الأثناء كان في عجلته يتعثر باستمرار في قفطانه الطويل . ولا تزال خلال ذلك تصل من جناح الحريم صرخات طويلة مكتومة تدوي دوياً فظيعاً في سكون الليل .

وفي حين من الأحيان قبيل الفجر حينما كانت عيون الكثيرين تنغلق من النوم والارهاق ظهر **اسحق أفندي** وأحاط به عِلْيَةُ القوم . وهمس بسرعة الطبيب العجوز وهو يهز باستمرار رأسه الصغيرة قائلاً :

ــ الحالة سيئة ، جناب الباشا يتقيأ باستمرار ويهذي . والآن فحسب هدأ قليلاً ولكن حالته سيئة ، غاية السوء ، وأخشى ..

وفي الصباح الباكر هدأ الجلالي إلى الأبد . وانطلق نبأ وفاته كالسهم في القصر . وبعد ذلك مباشرة انتقل عبر ترافنيك أيضاً . وكأن كل شيء تجمد للحظة . ومن الصعب القول بما إذا كان هذا خوفاً مما سيحدث الآن أم كان إحساساً متوتراً بالراحة ، لأن الكابوس الذى استمر ثلاث سنوات زال فجأة على هذا النحو . وبعد ذلك بقليل بعدما خفَّت حدةْ المفاجأة الأولى انطلقت الإشاعات التي كانت كالسيل وأخذت تنتشر وتمتد .

ــ تناول السم !

ــ لعنة **إلهامي** ؟

ــ في أثناء احتضاره كان يحجب عينيه ويذكر باستمرار **إلهامي** .

ــ ولم يهدأ إلى أن تقيأ القطعة الأخيرة من الكبد الذي أكله .

وفي أقل من عشرة أيام بعد ذلك زاد بياض الشاهد المنحوت من قبل ووضعت على قمته عمامة الدراويش . وقام شاعر مجهول باسم الكثيرين برد الاعتبار للشاعر المعدوم بأبياته التالية :

رحل إلى العالم الآخر بعناده للطغاة .
ومن بعده يموت الأصدقاء الأوفياء في حزن عميق .
وستكون إقامته الخالدة في روضة الجنة .
وتتفتح له جنة رحمة الله جل جلاله ، على مصراعيها .
لأنه عابد ومتعلم بشكل لا نظير له حتى الآن .
وتعجل الحاسدون لأن يسقوه كأس الموت .
وفجأة تهب رياح الشتاء باردة على حياته .

واحتسى في كأس الموت المر مياه أهل الجنة .
وحدثت وفاته في ليلة لطيفة من ليالي .
عام ألف ومائتين وسبعة وثلاثين .
وأحنى رأسه للسيف منتظراً مصيره السيىء .
واصبح سيد عبد الوهاب قدوة لجميع العادلين .

وبعد ذلك بعدة أشهر تم من اسطنبول إحضار شواهد قبور فاخرة نحتت عليها كتابات بارزة . وتم بمشقة نقلها خلال فترة طويلة من اسطنبول وحتى مدينة ترافنيك لكي يتم وضعها فوق قبر الجلالي في وسط ترافنيك نفسها . وبخلاف أبيات الشعر المنقوشة على شاهد قبر إلهامي فقد كانت الكتابات المحفورة على قبر الجلالي معتدلة وباردة كما كان حال جلال الدين علي باشا نفسه :

« سيد حاج حافظ جلال الدين علي باشا ، الوالي البوسنوي السابق الذي باعتباره والياً لروميليه رفع الراية ضد المتمردين في اليونان وانتقل إلى جنة الخلد . أضاء الله قبره . ولتقرأ الفاتحة على روحه » .

□ □ □

■ دار سعاد الصباح

للنشر والتوزيع

هي مؤسسة ثقافية عربية مسجلة بدولة الكويت وجمهورية مصر العربية وتهدف إلى نشر ما هو جدير بالنشر من روائع التراث العربي والثقافة العربية المعاصرة والتجارب الابداعية للشباب العربي من المحيط إلى الخليج وكذا ترجمة ونشر روائع الثقافات الأخرى حتى تكون في متناول أبناء الأمة فهذه الدار هي حلقة وصل بين التراث والمعاصرة وبين كبار المبدعين وشبابهم وهي نافذة للعرب على العالم ونافذة للعالم على الأمة العربية وتلتزم الدار فيما تنشره بمعايير تضعها هيئة مستقلة من كبار المفكرين العرب في مجالات الإبداع المختلفة .


مطابع
ت : ٩٣٢٧٠٦

رحلة الهامى الى المـوت

من المؤكد أن رواية « رحلة إلهامى إلى الموت » تعد من أشهر بل ومن أفضل الأعمال الروائية للكاتب رشاد قاضيتش من جمهورية البوسنة والهرسك .

وهذه الرواية تعد قصة حقيقية عن إلهامى ، إمام وخطيب مسجد فرهاد باشا ، الذى ظهر فى وقت كان فيه الخوف يجثم على صدور الناس فى عهد الجلال والى البوسنة . وأحس إلهامى بمشاعر الناس فأنشد قصيدة احتجاج قادته إلى حتفه ، فقد استدعاه الوالى وكان هذا يعنى صدور حكم بالإعدام عليه .

ولم يهب إلهامى ولم يجبن وذهب فى رحلة طويلة لكى يجابه الموت . ولكن لم تمض فترة طويلة حتى لقى الوالى نفس المصير .

